الفصل الثالث

دمشق وما حولها

دمشق، عاصمة الجمهورية السورية، تعد هي وحلب أجمل مدن الشام الداخلية قدراً. شيدت على سفح جبل قاسيون أحد مرتفعات قلمون ووسط سهل فسيح تجري فيه فروع عديدة اشتقت من نهر بردى وقد أحاطت بها بقعة عظيمة مشجرة اسمها (الغوطة) وعلوها عن سطح البحر (٦٩٠) ومن ثم كان لشتائها بعض القسوة، وحرها في الصيف أيضاً غير يسير لولا أن لياليه طرية منعشة.

أما بردى فهو GHRYSORRHOUS او نهر الذهب، ينبع قرب الزبداني، من أحد الجبال المشرفة على سهله في الغرب على بعد ٣٥ كم من دمشق وترفده مياه عين الفيجة، بل هي أكثر كمية منه بأضعاف، ومن هذه العين يشرب أهل دمشق، وحين وصول بردى إلى أول سهل دمشق وقبل دخوله المدينة يتفرع إلى سبعة فروع يزيد، ثورا، وقناة المزة والديراني وقنوات وبانياس والعقرباني[1] ويجتاز بردى الأصلي كل المدينة من الغرب إلى الشرق، بينما بقية الفروع تتشعب في كل أحيائها وتسقى دورها وبساتينها القريبة والبعيدة، وإذ خرج منها يجتاز ٢٥ كم يصب في بحيرة العتيبة وتبدو الغوطة أكثر اتساعا واكتظاظاً من الخضرة الخلابة في بلاد جرداء كالشام الداخلية. وهذا الإفراط في الاخضرار والنبات قد أثر تاثيراً بالغاً في مخيلة العرب حتى عدوها (الفردوس) أو (جنة جمال الأرض)[2] أما الأوروبي المعتاد على طبيعة أكثر سخاء فقد لايهتم بزيارة الرياض، فنباتات دمشق لا تختلف عما ينبت في بقية الأقاليم المعتدلة (الجوز والحور والمشمش والزيتون والتين) إلا أنه حينما يأتي فصل الربيع القصير في هذه البلاد وتغسل أنواره الرقيقة هذه الخضرة الغنية، المتعارضة بشدة مع تجرد هذه الجبال، لا يخلو إذ ذاك منظر الحدائق من الجذب،

---

(١) العقرباني ينفرع ضمن المدينة ويقصد هنا بردى نفسه

(٢) قال ابن جبير: دمشق جنة المشرق، ومطلع نورها المشرق، قد تحلت بأزاهير الرياحين، وتجلت في حلل سندسية من البساتين ظل ظليل وماء سلسبيل، تنساب مياهه انسياب الأراقم بكل سبيل، ورياض بحي النفوس نسيمها العليل، قد أحاطت كثرة الماء والبساتين بها إحداق الهالة بالقمر، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر.

لاسيما حينما تأتي القرويات باقنعتهن ويزدن لطخاتها السوداء، وفي المدينة نفسها يكون نهر بردى مكشوفاً في الغالب في كل مكان وتراه فيها قد تشعب إلى مجار وأقنية تنبو عن الحصر، فيغذي بمياهه الدافقة الحمامات والمساجد والدور والسبل العامة، والشرب منها خطر، وفي كل من هذه المباني حوض أو أحواض متعددة والخرير الدائم لهذه القنوات والمجاري، الذي يفاجئك حيثما ذهبت، يجعل لدمشق مزية خاصة نادرة المثال، وإذا خرج بردى من الغوطة يذهب نحو الشرق ليصب في قعرة غير نافذة اسمها (بحيرة العتيبة) يؤلف فيها مستنقعاً وخيم الهواء جداً.

شيدت دمشق في امتداد بردى، وعلى طول نحو ٢ كم ويحيط بجهاتها الأربع سور محصن، شكله قريب من المستطيل، ولدمشق في خارج هذا السور أرباض مكتظة بالسكان ففي الجنوب ربض أو حي الميدان يمتد مسكن الفلاحين والبدو وهو على الطريق القديم الآخذ إلى مكة، وهو مسكن تجار الغلال والحبوب والمتعاملين مع الفلاحين والبدو، وفي الشمال حي العمارة وحي سوق ساروجة وفي الشمال الغربي طريق الصالحية الطويل الذي تقطن فيه الأسر الوجيهة والجوالي[1] الأوروبية، أما داخل السور فمكتظ أكثره بالأسواق، ففي جنوبه يقوم حي اليهود وفي زاويته الشمالية الشرقية يقوم حي النصارى (باب توما) الممتد حتى ربض اسمه القصاع في أول طريق حلب.

ويتعذر معرفة سكان دمشق لقلة الاحصاءات الدقيقة ولعله قريب من ٣٠,٠٠٠ ثلاثة أرباعهم مسلمون، لهذا كان عدد المساجد والجوامع كثيراً جداً أي نحو ٢٥٠ وجلها قديم أثري، لكن مآذنها التي يغلب عليها الشكل المربع ليس لها ذلك التباين والرشاقة اللذين اسبغا جمالاً فتاناً على مآذن القاهرة، وحتى على مآذن حلب، إلا أن أصوات المؤذنين يسمع في دمشق أعذب من غيرها، وبالذات عند غروب الشمس وفي مطلع الفجر تدوى في سماء المدينة كصوت الجمع المحتشد، وأكثر هذه المساجد مغلقة في وجه الأجانب لأن الشعب الدمشقي ما برح شديد التعصب. وقد أسبغت الكثير من الذكريات على دمشق صفة المدينة المقدسة، فهي مبدأ ركب الحج إلى

---

(١) الجوالي جمع حالية

مكة أو هي باب الكعبة، وفيها ازدهرت العلوم الإسلامية خلال قرون طويلة، وفيها دفن كثير من العظماء. إلا أن شيوع الثقافة الأوروبية بين الطبقة المختارة ستخفف تدريجياً من تلك الحالة الروحية.

والمدارس الإسلامية القديمة التي أعلت شهرة دمشق فيما مضى قد اندثرت الآن كلها تقريباً والمكتبات التي كانت في مساجدها قد تشتت شملها بالنهب والإهمال. بيد أنه صار الآن فيها تعليم أرقى من السابق، وهو يوشك أن ينضج، فمدارس البعثة العلمانية في الصالحية، شارع بغداد ومدارس الآباء العازريين في باب توما، والإخوان المريميين في الصالحية شارع البرلمان تقوم بتعليم مئات من أبناء دمشق، والكتاتيب القرآنية تقوم مقامها بالتدريج مدارس ابتدائية وثانوية، وقد صار في دمشق الآن كلية عربية للآداب، (الغيت سنة ١٩٣٣) ومدرسة للحقوق وكلية للطب وفيها مجمع علمي عربي أيضاً.

والنصارى نحو ٥٠٠٠ هم أنشط الشعب الدمشقي وإن لم يكونوا أكثر عدداً وبينهم كل المذاهب النصرانية، والكثرة للروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك وكل الأسر المترفة قد اكتسبت التربية الأوروبية، وتعد اللغة الإفرنسية منتشرة بقدر اللغة العربية، والأرمن المهاجرون هم في الغالب من انحاء كيليكية يمتازون بنشاطهم ودأبهم، أما اليهود منهم فعلى قلة.

وفي جانب ما عددناه من السكان الأصليين تحتوي دمشق على عدد كبير من الغرباء ولاسيما الأكراد الذين أتوا مع صلاح الدين، والمغاربة الذين جلبهم الأمير عبد القادر معه، والفرس والأفغان والتركمان وحين رجوع الحجاج من مكة يزداد عدد هذه الاجناس والأزياء المتباينة ويلحظ وقتئذ في شوارع دمشق الأزياء المختلفة للعالم الإسلامي. واختلاف هذه الاجناس والأزياء وتعددها في دمشق يعطيها مزية خاصة، ومن المشاهد الأخاذة أن تتحول يوم الجمعة بعد الظهر نحو الساعة الواحدة، في أسواق دمشق، فتجد آنئذ أزياء ونماذج على غاية من الاختلاف تتدافع بالمناكب وسط الصخب والضجيج، وأكثر ما يلفت النظر هو أزياء نساء الغوطة، والملتحفات من الرأس إلى القدم ملاءة كبرة ذات أقلام عريضة أو رفيعة ملفحة من حرير توضع على الرأس وتلف على الذقن لا يظهر منهن سوى العيون، وألوان هذه المآزر تختلف

حسب القرى، أما النساء الدمشقيات فهن على العكس - ما خلا بعض الكبيرات في السن المحتفظات بالإزارات البيض - يلبسن ملآت سوداء فوق ثيابهن الداخلية، وهذه الملآت التي تسترهن تماماً مؤلفة من تنورة (خراطة)، وقناع أسود. أما البدويات فإما أن يكن حفاة أو ينتعلن جزمات ثقيلة ذات عقب من حديد وطرة. وهن يلبسن قميصاً مصبوغاً بالنيلة. ولهن وجوه قد يكون فيها شيء من الوسامة، يوشحنه ويزينه بقطعة من الذهب ملتصق بينها حجر فيروز يضعنها على الطرف الأيمن من أنوفهن (خزام) أما أزياء الرجال فهي ليست اقل اختلافاً، فكثير منهم يلبسون ثياباً أوروبية وعلى رؤوسهم الطرابيش إلا أن عدداً من الدمشقيين مازالوا محتفظين بالقنابيز الطويلة الحريرية المخططة والعباءات وبالعمائم ذات القماش المنقش بخطوط منفصلة (الأغباني) وبعضهم بالسراول المتموجة في أسفلها - والبدو وكثير من القرويين يلبسون قميصاً طويلاً من نسيج القطن وعباءة من الصوف، وهذه إما أن تكون بلون واحد أو مخططة بالأبيض والبني، ويرى السائح أيضاً مشايخ يعرفون بعمائمهم ذات النسيج الرفيع الأبيض، ودارويش المولوية اللابسين طاقيات طويلة من اللباد (كلاه)[1].

وقد ضعفت مكانة دمشق منذ أن قامت السكك الحديدية مكان القوافل في أمر النقل والركاب. وإذا كانت دمشق ما برحت محتفظة بشيء من المكانة باعتبار أنها مركز تجاري، فذلك لأن موقعها الجغرافي جعلها مركز تموين للبدو، وسوقاً كبيراً بتصريف أقماح حوران، ثم إن فواكه بساتينها تصدر إلى الخارج حتى مصر. وهي بلدة صناعية قد احتفظت بمكانتها في صناعة الأقمشة الحريرية التي مازالت تنسج بآلات بسيطة جداً (نحو ٢٠٠٠ نول)، وقد زاحمتها المصنوعات الليونية[2] وتكاد تقضي عليها. ويصنع فيها أيضاً موبيليا من ذات الحفر والتزيين ومن الخشب المقلوب، على أن هذه المصنوعات تدل على مهارة أكثر منها على الذوق، ويصنع

---

(١) في سوق الخياطين (الأزياء الدمشقية) وفي سوق الأروام (الألبسة الحورانية والدرزية).

(٢) من ليون بفرنسا (م)

فيها أوانٍ نحاسية مشغولة بالمثقب وملبسة. أما بقية الصناعات التي كانت اشتهرت بها دمشق في القديم كالأسلحة والأواني الزجاجية والجلدية فقد اندثرت بالكلية.

وفي دمشق عدد كبير من الفنادق العصرية والمطاعم والمقاهي ودور السينما والمسارح والبارات، والمرائب والحمامات والمكاتب، أما المعابد، فالمساجد الجوامع فهي تعد بالمئات، والكنائس أيضاً بكثرة، فلليسوعيين والفرنسيسكان في باب توما والأخوات المريميات في الصالحية كنائس عديدة، ومثل ذلك للطوائف المارونية والروم الأرذوكس والروم الكاثوليك.. الخ في باب توما، ولليهود تسع كنائس في حيهم ٩٣٨/١٢/١٥/١٤.

التاريخ - إن اسم دمشق سابق لعهد اللغات السامية.. وقد ذكر في النصوص المصرية على عهد الأسرة ١٨ والنصوص الآشورية وفي سفر التكوين وتكرر ذكرها في العهدين، ولم يبدأ التاريخ بذكر هذه المدينة إلا منذ عهد سليمان حول سنة ٩٤٠ ق.م فقد كانت حينئذ عاصمة دولة آرامية عرفناها جيداً، رغم أنها لم تخلف أي أثر مادي. وقد حكمت هذه الدولة فيما بعد حمص وحماه والبقاع وأكناف الفرات، وكانت عدوة لدودة للعبرانيين، لاسيما في عهد أحد ملوكها حزائيل. فقد استأثرت بالسيادة على بلاد الشام وقامت أيضاً بمهمة الدفاع عنها ضد هجمات الآشوريين، فقد أوقف بنجدد هذه الهجمات مراراً على شواطئ العاصي (٨٧٦) ق.م إلا أن دمشق سقطت بعد حين في يد الآشوريين الذين استنجد بهم آجاز ملك يهودا فقام سرجون الآشوري بنقل معظم سكانها إلى أرمينية (٧٣٢) ق.م.

وفي عهد السلوقيين كانت دمشق تنتقل من يد إلى يد دون أن يكون لها صيت ذائع. وفي عام ٨٥ ق.م تملكها أمير نبطي اسمه (الحارث)، ثم انتقلت لمدة قصيرة إلى يد الملك تيفران الأرمني، ثم سقطت في يد نواب القائد الروماني بومبي في سنة ٦٦، وتبعت من ذلك الحين الولاية الرومانية السورية. وقد منحها أدريانوس رتبة عواصم المدن الرومانية، وجعلها سبتموس سيفروس قاعدة لولاية (سورية الفينيقية) وأدخل تحت جنحها كل البقاع وأنحاء حمص وأفاميا وتدمر، وفي حكم سيفروس الأول والثاني صارت مستعمرة رومانية. ومن ثم ازدهرت دمشق ورقت تجارتها وسكنتها جالية كبيرة من اليهود، واشتهرت في تواريخ النصرانية الأولى بتنصر القديس بولس

ومواعظه الأولى، ثم صارت بعدها بمدة مركز أسقفية كانت تعد في درجة تتلو درجة بطريركية أنطاكية. وفي العهد البيزنطي حازت دمشق بفضل مركزها مكانة غير يسيرة كنقطة استناد لحراسة حدود الصحراء وحول تيؤديوس الكبير هيكل جوبيتر إلى كنيسة على اسم القديس يوحنا المعمدان، إلا أن استيلاء الفرس عليها سنة ٦١٤ كان ضربة قاضية عليها.

وفي أيلول سنة ١٤هـ/٦٣٥م فتحت دمشق أبوابها للعرب، ثم تركها هؤلاء في الربيع التالي حينما اقترب جيش بيزنطي، ولكن بعد معركة اليرموك سقطت دمشق ثانية في يدهم بعد أن قامت بدفاع قصير أوجبت تثقيل الشروط في المعاهدة الحديثة (كانون الأول ١٥هـ/٦٣٦م وجعلت دمشق في بادئ الأمر في عهد الخلفاء مركزاً عادياً لبلاد الشام ملحقة بعاصمة الخلافة (المدينة) إلا أنها استقبلت فيما بعد والياً اسمه معاوية بن أبي سفيان، إذ استقل فيها ٤٠هـ/٦٦٠م وفي عهد أعقابه الخلفاء الأمويين صارت دمشق عاصمة العالم الإسلامي كله وحظيت مدة من الزمن بجلال وسناء منقطع النظير. إلا أن هذه السعادة قضى عليها فيما بعد العباسيون حينما استولوا على الخلافة ١٣٠هـ/٧٥٠ هـ وأهملوا عمداً شؤون بلاد الشام. ثم تبعت دمشق فيما بعد مصر في عهد الطولونيين ٢٦٤م والاخشيديين ٣٢٣ هـ والفاطميين ٣٥٩ ـ ٤٦٨ هـ، وقاست من المحن ألوانا لتوالي غارات القرامطة وثورات (٢٩١ و ٣٦٠) هـ جنود المغاربة ومطامع البدو. وفي خلال هذه القلاقل احترقت دمشق عدة مرات. وبعد أن استخلصها أمراء الترك السلجوقيين في سنة ٤٦٨ هـ من يد الفاطميين صار لدمشق أسرة مالكة خاصة لها، وهي أسرة البوريين ٤٩٨هـ/١١٠٤م أبناء ظهر الدين أبو سعيد طغتكين (٤٩٩ ـ ٥٤٩)، إلا أن هؤلاء لعبوا على الحبلين بين الصليبيين الذين طردوهم من تحت أسوار دمشق مرتين (١١٢٩/٥٢٤ و ١١٤٨/٥٤٣) وبين الاتابكيين السلجوقيين.

ولما انتزعها نور الدين محمود بن زنكي وملكها سنة ١١٥٤/٥٤٩ عادت دمشق عاصمة لبلاد الشام ومركزاً للجهاد ضد الصليبيين وحفظت هذا الوضع أيضاً في عهد صلاح الدين الأيوبي وخلفائه الملوك الأيوبيين الذين كانوا يتناحرون بقسوة لأجلها. وإلى هذا العهد الذي يعد من أسطع العهود في تاريخها (القرن ١٣) بنيت

أكثر عمائر دمشق العظيمة الأثرية. ثم شرعت تأتيها غارات المغول ١٢٦٠/٦٥٩ ، وفي عهد السلاطين المماليك جعلت دمشق مركزاً لولاية بلاد الشام كلها. ثم عاد المغول لغاراتهم ونهبوها وأفحشوا فيها ١٣٠٠/٧٠٠ فشرعت في ذلك الحين تضعف وتخرب.

أول من ولي دمشق والشام كله في الإسلام (أبو عبيدة بن الجراح) عند فتحها في خلافة عمر، ثم حرف عنها ووليها (معاوية بن أبي سفيان) عن عمر أيضاً. فبقي هو وأعقابه من بني أمية إلى انقراض دولتهم بقتل (مروان بن محمد) آخر خلفائهم. وفي دولة بني العباس وليها في خلافة السفاح عمه (عبد الله بن علي) في سنة ١٣٢، فبقي في أيام السفاح وبعض أيام المنصور بعده، ثم صرفه المنصور بولاية (أبي مسلم الخراساني) الشام ومصر في سنة ١٣٧ ثم بعد قتله توالت أعمال خلفاء بني العباس إلى أن غلب (أحمد بن طولون) صاحب مصر فهو أول ملوكها بعد موت ملكها أما جور في سنة ٢٦٤ ، ثم ملكها بعده ابنه (خمارويه) ثم جيش بن خمارويه، ثم (هارون بن خمارويه)، وكان طغج بن جف نائباً عنه بها. وفي أيام هارون تغلب القرامطة على دمشق، ثم انتزعها منهم (المكتفي بالله) خليفة بغداد في سنة ٢٩١ وأقام عليها (أحمد بن كيغلغ) أميراً، فلما ولي الراضي الخلافة عزله في سنة ٣٢٣ وولى عليها (الإخشيد) وهو محمد بن طغج بن جف وذلك قبل أن يلي مصر فاستناب عليها بدراً الاخشيدي، فانتزعها منه (محمد بن رائق) في سنة ٣٢٨ ثم عاد الاخشيد المذكور وانتزعها من ابن رائق وبقيت معه حتى سنة ٣٣٤ فوليها بعده ابنه (انوجور) وهو صغير، وقام بتدبير دولته كافور الإخشيدي الخادم. ثم انتزعها منه (سيف الدولة بن حمدان) صاحب حلب ثم انتزعها منه كافور الإخشيدي وولى عليها بدراً الإخشيدي الذي كان بها أولاً ، ثم وليها (أبو المظفر أفورجو بن طغج) ثم لما مات ملكها مع مصر أخوه علي بن طغج ثم كافور بعده ثم أحمد بن علي بن الإخشيد وهو كان آخر الإخشيديين، ولما استولى جوهر قائد المعز الفاطمي على مصر أخذ دمشق أيضاً في سنة ٣٥٩ وولى عليها جعفر بن فلاح، ثم ولى المعز عليها ريان الخادم، ثم غلب عليها افتكين مولى معز الدولة بن بويه باسم العباسيين، ثم استردها المعز وابنه العزيز وفي أيامهما تغلب عليها قسام الحارثي، ثم تولاها بكتكين ثم بكجور

وغيرهما من عمال الفاطميين إلى أن تغلب عليها (أتسز بن ارنن) الخوارزمي أحد أمراء السلطان ملكشاه السلجوقي في سنة ٤٦٨ وخطب للعباسيين ثم غلب عليها (تتش بن أبي أرسلان بن داود بن ميكائل بن سلجوق) في سنة ٤٩١ ثم ابنه دقاق مشاركاً أخاه رضوان صاحب حلب في الخطبة، ولما توفي دقاق سنة ٤٩٩ تغلب اتابك ابنه (طغتكين) وبقي حتى ٥٢٢ ثم ابنه (تاج الملوك بوري) إلى سنة ٥٢٦ ثم ابنه هذا (شمس الملوك اسماعيل) ثم أخوه شهاب الدين محمود بن بوري) حتى توفي سنة ٥٣٣، ثم ابنه (مجير الدين ارتق) وفي أيار تغلبت الفرنج على ناحية دمشق[1] ثم انتزعها منهم نور الدين محمود بن رنكي المعروف بالشهيد وملكها في سنة ٥٤٩ واجتمع له ملك سائر الشام معها ثم لما توفي خلفه ابنه الملك الصالح اسماعيل، ثم انتزعها منهم نور السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب صاحب مصر في سنة ٥٧٠ وقرر فيها أخاه سيف الإسلام طغتكين، ثم ابن أخيه شاهنشاه بن فرخشاه بن أيوب في سنة ٥٧٤، ثم قرر فيها ابنه الأفضل نور الدين علي.

وبعد وفاة صلاح الدين انتزعها منه أخوه العزيز عثمان صاحب مصر بمعاضدة عمه العادل في سنة ٥٩٢، ثم سلمها العزيز إلى عمه (العادل) فقرر فيها ابنه (المعظم عيسى) صاحب الكرك والشوبك، ثم لأخيه (الكامل) صاحب مصر حتى سنة ٦٢٤، ثم بعده ابنه (الناصر صلاح الدين داود) ثم انتزعها منه (الناصر محمد بن العادل) واستخلف فيها أخاه الأشرف موسى، حتى سنة ٦٣٥ ثم ملكها أخوه (الصالح إسماعيل) فانتزعها منه أخوه (الكامل في ٦٣٥ ثم بعده (الجواد).

رغم طول ايام الحكم التي تولاها تنكيز نائب سلطان مصر (١٣١٢/٧١٢ - ١٣٣٩/٧٤٠ ذلك من جراء فوضى الإدارة والسياسة في تلك الحقبة وفي سنة ١٤٠٠/٨٠٣ جاء تيمورلنك ونهب دمشق وأحرقها وضربها بقسوة تركها شبه خاوية مدة نحو نصف قرن، وجاءت بعد إدارة المماليك (الشراكسة القلقة) فلم تتمكن دمشق من جراء ذلك أن تنهض من كبوتها.

---

(١) لايقصد أن الفرنج قد احتلوا دمشق لأن هذا لم يحدث قط بل يقصد نزولهم بأرباضها ونواحيها.

ولما استولى العثمانيون على دمشق سنة ١٥١٦/٩٢٢ صارت مركز باشوية هامة، ورأت بفضل حسن إدارة بعض هؤلاء الباشوات أمثال أسعد باشا (في القرن ١٨) عهداً جديداً من الازدهار، وكثرت فيها المباني العظيمة الأثرية، في عهد استيلاء المصريين[1] (١٨٣٢/١٢٤٨ ـ ١٨٤٠/١٢٥٦).

وفي سنة ١٢٣٥ هـ حدثت في المزة معركة كبيرة بين عبد الله باشا ودرويش باشا. وشاهدت أول تجارب التنظيم في الحكومة ولكن حوادث لبنان أدت إلى مذبحة هائلة في النصاري (١٨٦٠/١٢٧٧) أظهر خلالها الأمير عبد القادر مروءة عظيمة وعهد مدحت باشا كان بدأ تأسيس تنظيم نافع، وإلى هذا العهد تعود أكثر الشوارع الرئيسية في دمشق ثم صارت دمشق في وقت سريع بؤرة لقومية شامية لكثرة ما فيها من الطبقة المثقفة. وبعد الحرب صارت عاصمة المملكة السورية التي شادها فيصل، والذي أسقطتها إدارة الانتداب الفرنسي.

زيارة المدينة ـ في دمشق كثير من خطوط الترامواي الكهربائي، التي تجتمع في ساحة المرجة كما توجد في هذه الساحة مركبات (فياكر) وسيارات أجرة، لكن الأفضل أن يسير السائح مشياً كي يتمتع بمشاهدة حيوية الشوارع ويلحظ مناظر وحوادث جذابة وقد بدأت حافلات الترام سيرها بدمشق إثر احداث التنوير الكهربائي في المدينة في نيسان ١٩٠٧.

المدينة القديمة ـ يبدأ السير من ساحة المرجة، (ساحة الشهداء) لأن أحمد جمال باشا شنق فيها في نيسان ١٩١٦ بعض أحرار العرب وهذه تعد مركز دائرة البلدية الحديثة، وفي وسطها قامت حديقة صغيرة تحيط بعمود تذكاري من البرونز أقامه ناظم باشا في سنة ١٣١٦ ذكرى لتمديد السلك البرقي من دمشق إلى استانبول أعلاه تمثال مصغر لجامع الحميدية في اسطنبول ـ ومن المرجة يتبع سكة حديد الترامواي نحو طريق السنجقدار، وكان فيه حي كبير احترق في سنة ١٣٤٧ وثمة جامع السنجقدار المبني في سنة ١٢٣٦، وقد سمي بهذا الاسم لوجود ضريح فيه لعباس بن مرداس حامل لواء (سنجق) الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي واجهته الحجرية

---

(١) يقصد حكومة محمد علي باشا الذي أرسل ابنه ابراهيم باشا لاحتلال بلاد الشام.

العالية في الحجر الأسود والأبيض وفيه باب مقرنص لطيف كتب عليه أبيات تركية فيها تاريخ ١٢٣٦ هـ ثم يصل إلى مدخل سوق مسقوف اسمه الخوجه المبني فوق خندق القلعة القديم في سوق الخوجه ثم يخرق نحو سوق الأروام[1]، فهذا السوق مع سوق الحميدية الذي يتصل به ويطيله يؤلفان أجل شارع تجاري في دمشق. وهنا يوجد باعة الأشياء والسلع الأثرية، وتجار السجاد العجمي، وكذلك السلع الأوروبية.

وإن كانت الحوانيت التي على جانبي هذين السوقين لا تحتوي على شيء من المزايا البلدية، إلا أنهما لا يخلوان من المتع من جراء الحركة والازدحام السائدين فيهما. ففيها يوجد هؤلاء الدلالون الذين يركضون من حانوت إلى آخر يحملون الأشياء المعروضة للمزاد ويرفعون عقيرتهم بالنداء عليها، وباعة الليموناده المثلجة الذين يحملون خابية كبيرة من الزجاج على صدورهم ويدقون بطاسات نحاسية دقات خفيفة متتابعة، وعدد لا يحصى من الباعة الجوالين ينادون على فواكههم أو خضرواتهم وهم يسوقون أمامهم حميرهم السود أو البيضاء، وقد زينوا أعجازها برسوم أحدثوها بالمقص، وحلاقون يحلقون الرؤوس في العراء، وترى بائع القهوة يدخل إلى حانوت ويخرج من حانوت وهو حامل بيده اليمنى ركوة وفي اليسرى فناجين صغيرة عديدة، ومتسولات وعميان يرتلون أناشيد ويستجدون الصدقات، ومجنونون نصف عراة يمرون دون أن يحتج أحد على إزعاجهم، لأنهم ينظر إليهم كقديسين.

وفي وسط سوق الحميدية طريق إلى اليسار يذهب نحو إلى سوق العصرونية نسبة إلى المدرسة التي احترقت في الحريق الكبير سنة ١٣٢٨ هـ الأشهر ولم تعد إلى ما

---

(١) وعلى يمين سوق الأروام لا تزال هناك أسواق قديمة معقودة السقوف ضيقة تباع فيها الفرش والبسط والوسائد وأمثالها وقد قامت هذه الأسواق مكان (دار العدل) مسكن نواب دمشق في العصور السابقة وقد بنى دار العدل نور الدين الشهيد وفي جنوبي هذه الأسواق كان هنالك حي كبير كان يدعى (زقاق سيدي عامود) نسبة لبقايا أعمدة الشارع المستقيم التي كانت فيه احترق هذا الحي بقنابل المدافع التي أطلقت عليه من قلعة غورو في المزة في احدى ليالي تشرين الثاني ١٩٢٥ ثم نظمته البلد وقسمته إلى أربع شوارع مستقيمة تقاطع ثلاثي ثم شرع أصحابه في بناء منازل حديثة فيه ذات طبقات وقد سميت الشوارع الأربعة بأسماء طارق بن زياد وغسان وعبد القادر وأبو عبيدة وصفي.

كانت وبقي اسم السوق منسوباً إليها، فيه حوانيت صناع نباريش التراجيل وتجار الأواني الزجاجية، وفيه طريق في أوله دار الحديث الأشرفية[٢] على اليمين وفي وسطه المدرسة العادلية الصغرى إنشاء زهرة خاتون بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب، كانت قد حرقت وبقيت جدرانها قائمة، وتجاهها (النورية الصغرى) كانت حرقت وبقيت جدرانها أيضاً بعد أن تجتاز (بنكو دي روما) المدخل الشرقي للقلعة.

بنيت قلعة دمشق وسط أرض منبسطة وليس على نشز كما هو الحال في بقية قلاع بلاد الشام، وسبب ذلك لأنها خلفت مكان حصن روماني قديم، لاتزال بقاياه ماثلة في داخل السور ويعود أكثر مباني هذه القلعة الحاضرة إلى القرن ١٣ سنة ٦١٤ ـ ٦٧٦هـ/ ١٢٨٠م ومابعدها ، إذ إن الملك العادل أبو بكر أخو صلاح الدين قام بهذا البناء مكان الحصن القديم الذي لم يعد يصلح للدفاع بحكم الفنون الحربية التي تغيرت حينئذ عما قبل. وظلت هذه القلعة معتنى بأمرها إلى حين استيلاء العثمانيين سنة ١٥١٦/٩٢٢. ولا تزال هذه القلعة سالمة في الجملة وهي تحتوي على سور مستطيل الشكل، يتبع في الشمال مجرى نهر بردى الذي يقوم لها مقام الخندق، وهذا السور حصن باثنى عشر برجاً مستطيلة الشكل، والباب الشرقي (القرن ١٣) قد ستر بعقد من الحجر المقرنص، وهو يعد آية في عداد هذا النوع من النحت، ويعد أحد خصائص فن الريادة العربية.

وإذا ظل سائراً في سوق الحميدية يصل حالاً إلى أمام (مدخل الهيكل) الذي يخطئ من يظنه قوس نصر وبعد بضعة أمتار وراءه ينفتح مدخل الجامع الأموي.

قام الجامع الأموي مكان الهيكل المخصص لجوبيتر الدمشقي، الذي بدله الرومان عن الإله الشامي القديم حدد الذي كان يعبد في عهد الدولة الآرامية الدمشقية.

وكان لهذا البناء سور أولي خارجي طوله ٣٠٠ متر، وهو الآن قد غطى تحت أروقته سوقاً، وكان لهذا السور بابان عظيمان لكل منهما مدخل فخم. فالباب

---

(٢) نسبة لبانيها الملك الأشرف موسى بن العادل في سنة ٦٣٠ وقد احترقت عام ١٣٣٠ ثم رممت ترميماً حقيقياً (وصفي)

الغربي الذي قد حفظ أكثر من غيره هو الذي صار يعرف خطأ بأنه قوس نصر و (الفرونتون) فيه الذي زخرف زخرفاً ثرياً قد ركب فوق ستة أعمدة طول علوها ١٦ متراً، عليها تيجان كورنثية جميلة أما سور الهيكل الأصلي المزخرف بدعائم، فهو يؤلف اليوم جدار الجامع ويظهر أنه كان له برج في كل من زواياه. وكل هذه المباني قد انتهى تشييدها فيما يظهر في القرن الثالث الميلادي. فالامبراطور تئودوس (٣٧٩ ـ ٣٩٥) هدم الهيكل الذي كان قائماً وسط السور الداخلي وبني في لصق الجدار الجنوبي من هذا السور بازيليكا ذات ثلاثة صحون وأسواق تتصل بباحة ذات قبة Transpent a compole وتتصل في الوقت نفسه بأعمدة تربط الأبواب بالمدخل الكبير.

ثم جعلت هذه البازيليكا تحت حماية القديس يوحنا المعمدان (النبي يحيى) وفي سنة ٧٠٨م عزم الوليد على أن يحلي دمشق بمسجد فخم يتناسب مع عظمة الخلافة الأموية فصمم باحة كنيسة القديس يوحنا للمسجد، إلا أن التغيير الذي أجراه فيها لم يبدل فيما يظهر منظرها العام، وقد اهتم هذا الخليفة بالتزويق والزخرف، فجاء آية في الإبداع، فمنها الفسيفساء المذهبة، والمرصعات والنقوش بالرخام الثمين، والتلبيس الذهبي جعلت لهذا المسجد الحديث زهواً وفخاراً لدمشق أجمع العالم كله على الإعجاب به وعد من بعد أحد عجائب العالم، وقد احترق هذا المسجد ونهب مراراً عديدة، أفظعها ما أجراه المغول، وقد حولوه وقتئذ لمكان فحش إلى أن احترق احتراقاً كاملاً سنة ١٨٩٣، وقد رممته الحكومة التركية فيما بعد ترميماً لم يكن طبق الأمانة المرغوبة، إلا أنه على الرغم مما هو عليه مازال له منظر جميل بحكم ما له من الوسعة والعظمة والأطلال التي ما برحت تدل على رونقه وبهائه القديمين).

يدخل إلى الجامع الأموي من بابه الغربي المعروف بباب البريد، ولا يزال لهذا الباب تاجان عربيان من البرونز النافر وهذا الباب نوع من المنفذ جدرانه مزخرفة بالقاشاني (القرن ١١ هـ /١٧م وقبابه بالفسيفساء وهذه الفسيفساء مصنوعة على الطراز البيزنطي بمكعبات من الزجاج الملون أو المذهب وقد اكتشفها حديثاً المسيودي السوري وأخرجها من تحت طلاء الكلس الذي كان ممدوداً فوقها، وهي

كلها من العهد الأموي، ما خلا قليلاً من الرتوش الذي يعود للقرن ١٣/٦ بدلالة كتابة لبيبرس موجودة في الجدار الجنوبي، أما الصور على الفسيفساء المذكورة فهي مختلفة، وليس بينها أي صورة للبشر قط، بحكم منع التصوير في الإسلام وهي في الغالب صور أشجار وأوراق، وأغصان الخرشون ومبانٍ، ووجهة المنفذ (الباب) نحو صحن المسجد محفوظ خاصة حفظاً جيداً وغني بالألوان، لكن أجمع مجاميع الألوان هي تحت الرواق الغربي للصحن، فترى فيها مباني مختلفة امتدت على شاطئ نهر تحت ظلال أشجار باسقة. وعلى قبة الخزنة في الشمال سطح مزخرف بصورة نخلة.

والحرم ذو طول قدره ١٣٠ متراً أعيد بناؤه حسب وضعه الأصلي ولكن الزخارف كلها جديدة، وينقسم هذا الحرم إلى ثلاثة صحون تفصلها صفوف من الأعمدة الكورنثية التي كان لها قبلاً تيجان مذهبة وقد غطيت بسقوف، وفي وسط الحرم القبة التي رممت ترميماً غير متقن تحملها أربعة دعائم عظيمة ضخمة (يلحظ على الدعامة الشمالية الشرقية قطعة من الفسيفساء تحمل كتابة عربية).

أما المحراب فهو حديث. وفي الجهة الشرقية من الحرم بنية صغيرة يقال إن فيها رأس القديس يوحنا المعمدان (النبي يحيى) الذي قد يكون اكتشف في خشخاشة أثناء قيام الوليد بن عبد الملك بإشادة هذا الجامع. أما صحن الجامع فمحاط بالأروقة ولا تزال يلحظ فيها في عدة أماكن وجود مصفحات رخامية (في المدخل الشرقي) وبقايا من قطع الفسيفساء في جهة ما بين الصحن والحرم) وفي قسم هذا الصحن الغربي يوجد قبة صغيرة راكبة على أعمدة، اسمها قبة الخزنة، كانت تحتوي على بيت مال الأمة في أول عهد العرب.

وللجامع الأموي ثلاث مآذن، أعلاها في الجنوب الشرقي تدعى مئذنة عيسى، ويزعم المسلمون أن عيسى يهبط إليها إلى هذه الدنيا ويقاتل الدجال الذي يأتي قبيل قيام الساعة، والمئذنة الجنوبية الغربية مثمنة الأضلاع جميلة وواسعة البناء قد بنيت فوق أحد أبراج هيكل جوبيتر، وهي أجمل مئذنة من حيث الهندسة والنقش والأصول المعمارية قامت على مساحة ٤٨م٢ بارتفاع ٦٦م فمهندسها عربي اسمه سلوان بن علي وقد تمت عمارتها سنة ٨٨٥ وبانيها السلطان الملك الأشرف قاتباي

كتب اسمه على جهاتها الأربع، ولها شكل ممشوق خاص بها بناها في القرن ١٥/٩ السلطان الملك الأشرف قاتباي على الطراز المصري. أما المئذنة الشمالية فتدعى مئذنة العروس وهي من العهد الأموي، لكن قسمها الأعلى حديث.

يخرج السائح من باب المسجد الشمالي الملبس بالبرونز النافر (من القرن ١٤) ويمر بين صفين من الأعمدة البيزنطية ويجد على يمينه باب المدرسة المشيساطية التي بناها في سنة ٣٤٠ أبو القاسم على السلمي الشميساطي العالم الفلكي المهندس، وكانت قبلاً دار الخليفة عمر بن عبد العزيز، وقد كانت جددت في السنين الأخيرة لتكون مدرسة نظامية لتدريس العلوم الإسلامية فضاع المشروع بين تسويف الحكام ونسيان الأمة وانتهى بها الأمر إلى أن قد احتلها الآن مريد مريدو الطريقة التيجانية وجعلوها إحدى معاقلهم، ثم ينحرف نحو اليسار بين مدرستين قديمتين المدرسة الجقمانية وتجاهها خانقاه الجقمانية جددها بعد احتراقهما سيف الدين جقمان في سنة ٨٢٢. وفيها ضريحه وهي اليوم خراب إلا واجهتها الجميلة فيرى فوراً على يساره ضريح السلطان صلاح الدين الأيوبي المتوفى سنة ١١٩٣/٥٨٩م تحت قبة ذات أضلاع.

ظل هذا الفرع قروناً مهملاً إلى أن زاره الأمبراطور الألماني سنة ١٨٩٨، فرممه وقتئذ وأهداه (تابوتاً) جديداً، علق فوقه مصباح فضي منقوش باسمي الامبراطور المذكور والسلطان عبد الحميد الثاني، إلا أن أكثر ما يسترعي النظر هنا ذلك التابوت الخشبي المزين بالنقوش العربية البديعة (القرن ١٢) ويظن أن هذا التابوت لسكرتير السلطان صلاح الدين، والجدار الغربي للضريح مزخرف بالقاشاني من القرن ١٧ وفيه كتابة تركية من مضامينها شكر السلطان صلاح الدين لتخليصه واسترداده القدس من أيدي الكفرة.

وإذا خرج من هذا الضريح واستمر سائراً نحو الغرب يصل حالاً إلى ما بين المدرستين الظاهرية على اليمين والعادلية على اليسار. فالمدرسة العادلية الكبرى تحتوي على قبر الملك العادل سيف الدين والذي يزعمونه زعماً لا أصل له في الغالب.

إن هذه المدرسة التي تم بناؤها سنة ١٢١٨/٦١٨ تمتاز بريازة ذات متانة عظيمة وفيها الآن المجمع العلمي العربي والمتحف الذي يفتح في كل يوم ماعدا الثلاثاء. وفي

هذا المتحف[1] خاصة مجموعة جميلة من أنصاب الموتى التدمريين ومجموعة بديعة جداً من الأواني الزجاجية الرومانية والعربية، وفي البهو الخاص بالآثار الإسلامية وفيه قبة تحتها ضريح الملك العادل (قطرها ١١ متراً) يلحظ أيضاً بضع قطع من المخطوطات الملونة ومحمل الحاج الشامي المنسوج من المخمل المطرز بالذهب).

أما المدرسة الظاهرية المبنية سنة ١٢٧٩ ففيها ضريح الملك الظاهر بيبرس من ألد أخصام الصليبيين، وقد دفن فيها هو وابنه الملك السعيد سنة ٦٧٦ هـ (يدخل إلى هذه المدرسة من بوابة سامية الارتفاع زين أعلاها بالأحجار المقرنصة، المزحلقة المصقولة عجيبة جداً، ونقشت فيها سطور ذات خط غاية في الحسن ذكر فيها اسم الملك السعيد واسم المهندس ابراهيم بن غنايم، أما القبة التي فيها قبر الملك الظاهر وابنه الملك السعيد بركة خان فهي وحيدة بنقوشها وجميل بنائها في كل مصانع الشام، فقد جعل مكتبة، له جدار ملبسة بفسيفساء بديعة من الرخام الملون، وله افريز (طنف) من الفسيفساء البديعة ذات الفصوص الذهبية، صور بها أشجار ومبانٍ، في دائره كله. وهنا أجمل ما حفظته دمشق من الآثار الجميلة للفن العربي).

يستمر السائح نحو الجنوب من سوق باب البريد ويجتاز سوق الحميدية (من أمام باب البريد) والمدخل الروماني، فينفذ إلى سوق تزدحم فيه الأرجل اسمه سوق الحرير، فيجد فيه حوانيت متراصفة تزخر بمختلف الأقمشة الأوروبية القطنية، وفي يسار هذا السوق خان حديث كان فيه سوق الرقيق قديماً، وعلى اليمين خان قديم اسمه خان الجمرك غطي بقباب عديدة (من القرن ١٦ ـ ١٧) وفيه حوانيت للأقمشة النسائية تزدحم فيه النساء بالمناكب. ثم في سوق الحرير على اليسار أيضاً سوق حمام القيشاني (من القرن ١٧) بناه درويش باشا المتوفى سنة ٩٨٦ الذي حول إلى سوق في حوانيته تباع الأقمشة المصورة والمخرمة والمطرزة، وفي واجهته نافذتان من الستيلاكيت وفي جداره الغربي بقايا قطع من القيشاني صنع دمشق، وإذا سار على استواء بين صفين من الحوانيت ذات الطراز القديم يصل إلى مصلبة طريقين فيهما

---

(١) أسس المتحف الوطني في عهد الملك فيصل ١٩١٨ ـــ ١٩٢٠ قبل الاحتلال الفرنسي وقد كان مقر المتحف الأول مكان المدرسة العادلية.

باب قديم لهيكل جوبيتر، لا تزال عتبته العليا وعضادتيه المزخرفة وطرف من السور القديم ذي الأحجار الضخمة ماثلة.

وإذا انحرف السائح إلى اليسار يمر تحت ساباط[1] وإذا سار في سوق الحرير يمر من أمام المسجد الذي فيه قبر السلطان نور الدين محمود بن زنكي سنة ٥٦٣ هـ وهي بعض دار هشام بن عبد الملك، وإذا دخل سوق الخياطين يجد في وسطه على اليسار المدرسة الإسماعيلية نسبة لإسماعيل باشا العظم في سنة ١١٤١ فيه مدرسة مهجورة صارت مأوى للفقراء من بناء عبد الله باشا العظم في سنة ١٢١٠ ثم ينفذ بعد مسافة إلى أول سوق السلاح، وثمة على اليمين المدرسة الفارسية من بناء الدوادار سيف الدين فارس التميمي في سنة ٨٠٨، وعلى يساره خان ثم يبلغ باب قصر بيت العظم ثم يمر من البزورية وثمة بيت العظم.

شرع في بناء هذا القصر سنة ١١٤٩/١١٦٣، وانتهى في سنة ١١٧٤، وكان مسكن أسعد باشا العظم أحد مشاهير ولاة دمشق في عهد العثمانيين وقد اشترته الحكومة الفرنسية من آل العظم في سنة ١٩٢٢ وجعلته داراً للبعثة الأثرية الفرنسية ورممت خرابه القديم، إلا أن قاعته الجميلة كانت وقسم (السلاملك) البراني أصابها حريق في ثورة دمشق الكبرى سنة ١٣٤٤/١٩٢٥ ثم جددت.

إن باحة هذا القصر التي كانت مختصة بالحريم بهيجة جداً، لجمال بلاطها ورخامها وأحواضها، وأشجارها وفي اليمين بقايا القاعة التي كانت البهو الكبير الخاص باستقبال الزائرين، وجدران هذه القاعة مصفحة بالرخام والقاشاني. وكان لها قبلاً نوافذ كبيرة ذات إطارات معدنية تحيط بألواح الزجاج، وسقف غاية في الزخرف. وفي هذا القصر حمام جميل فيه أقسام ومقاصير عديدة ذات حرارة مختلفة، وفي الجهة الجنوبية من القصر يوجد إيوان جميل يستعمل في الصيف، وهذه الأواوين يوجد منها في كل دور دمشق. والمكتبة والديوان والبهو الموجودة تحت الأقواس فهي نماذج ممتازة من الصناعة الخشبية المصبوغة بالصباغ المعروف بالعجمي التي اشتهرت بها دور دمشق. ويلاحظ هنا خاصة غنى السقوف بالأصبغة،

---

(١) الساباط هو البناء (أو جزء من بناء) يصل ما بين بنائين ويكون فوق شارع.

والروعة والجمال من فحص التلبيس والتزيين الداخلي على الجدران يبدو لك كثير من تفاصيل التزيينات المنقطعة النظير في الروعة والجمال. وفي آخر الباحة ترى أسداً حثياً من حجر البازلت الأسود جلبوه من قرية الشيخ سعد في حوران (القرن ١١ ق.م) وخابيتين كبيرتين أثريتين. أما قسم (السلاملك) وهو المختص بالرجال من هذا القصر فقد احترق معظمه وسيُجدد بناؤه.

بعد الخروج من قصر بيت العظم يدخل السائح سوق البزورية، وفي أوله حوانيت كبيرة لصنع المربيات والسكاكر لاسيما تلك التي تعمل بلباقة من الثمار والفواكه الدمشقية وأخصها المشمش، ولمنتوجات هذه الصناعة التي اشتهرت بها دمشق واختصت شهرة في الخارج ورواج غير يسير.

وفي هذا السوق على اليسار حمام من آثار نور الدين محمود زنكي، ثم خان عظيم بناه أسعد باشا العظم بعد بضع سنوات من بنائه القصر، وهو أجمل خانات دمشق طراً وأجمل ما فيه واجهته وبوابته.

ثم يدور إلى اليمين وينفذ إلى سوق مدحت باشا الممتد نحو الغرب بامتداد (الشارع المستقيم) الروماني وهو من أعظم الأسواق حركة في دمشق لكثرة مافيه من حوانيت الأقمشة والمنسوجات القطنية كالعبي والفرش والحبال ولأنه ممر كبير نحو الأحياء الشرقية كالشاغور والخضيرية ومئذنة الشحم والخراب وحي الأمين ويمكنه أن يبدل اتجاهه فينفذ إلى سوق القطن، الذي يزدحم فيه القرويون والبدو دائماً. وفيه يلحظ مئذنتان جميلتان لجامعين اسمهما (القلعي) و (سيدي هشام)، فمسجد القلعي قال عنه أسعد طلس "مسجد صغير" (لكن) بجانب بابه تقوم المنارة الحجرية المربعة الرائعة ذات الزخارف البديعة والمقرنصات والنقوش، و (هي) تزين (مسجد القلعي) كان في القرن الحادي عشر أعظم بكثير مما هو عليه الآن. ومسجد (سيدي هشام) أيضاً صغير له منارة حجرية مثمنة بديعة في بنائها وزخرفتها. وحوض ماء (سبيل) عربي جميل (من القرن ١٤ و ١٥). وهذان السوقان يصلان إلى شارع الدرويشية أمام جامع كبير. وهنا يتلاقى خط الترمواي القادم من حي الميدان، فيتبعه سائراً نحو الشمال. فيرى على يمينه حوانيت صناع الخراطين الذين يدورون مخرطتهم بباهم رجلهم، ثم يصل إلى (جامع الدرويشية) وبناه في القرن ١٦، درويش

باشا المتوفى سنة ٩٨٦. وهو يحتوي على سطوح مزخرفة بالقيشاني الدمشقي عجيبة جداً. (من القرن ١٦) وأجمل قطع هذه القاشاني في داخل حرم الجامع وداخل ضريح درويش باشا المبني تجاه الجامع.

ثم يصل فوراً إلى مدخل سوق الحميدية، ويدور هناك إلى اليسار نحو شارع عريض جميل يدعى شارع النصر، فتحه القائد العثماني الشهيد أحمد جمال باشا أثناء الحرب العامة وفي أول هذا الشارع على اليسار (سراي المشيرية) القديمة وعلى يمين الشارع نفسه منشآت حديثة للأوقاف وللمصالح العقارية، وغيرها ثم يتقدم إلى الأمام فيلاقي على اليمين جامع تنكز ذا الوجهة الواسعة الممتدة طول الشارع، وكان اتخذ منذ سنة ١٢٧٠ هـ مدرسة عسكرية ظلت تحوي ضباطاً وقواداً نحو ٨٠ سنة إلى أن تركته العسكرية فاحتلته جمعية دينية اسمها الجمعية الفراء واتخذته مدرسة ثم بعده بقليل وعلى اليمين أيضاً التكية المولوية على عتبة بابها تاريخ ٩٩٣ وقد بني لها أخيراً مسجد ومئذنة جميلين، وعلى اليسار بناء إدارة البرق والبريد والهاتف ومحطة السكة الحديدية الحجازية. ثم على اليمين فندق كبير فخم هو فندق قصر الشرق. وإذا ظل سائراً سوياً بمحاذاة نهر بانياس يقترب من موقع البرامكة ويمر من أمام المستشفى الوطني وهو من آثار ناظم باشا تم تأسيسه في سنة ١٣١٧ هـ والجامعة السورية وينحرف نحو اليمين فيلاقي جامع السلطان سليم وتكية السلطان السليمية التي بناها السلطان سليمان القانوني وفي شرقه التكية السليمية التي بناها السلطان سليم الأول.

بُني هذا الجامع الجميل ذات المئذنتين المشوقتين وهي من أجمل آثار العثمانيين هندسها سنان الشهير المتوفى سنة ٩٦٦ والقبة العظيمة، على الطراز التركي وهي في الغاية بناء وهندسة وأوقافاً عظيمة وأمام حرمه رواق كبير محمول على أعمدة أكثرها من حجر الغرانيت، وشيد حول صحنه مطابخ ومقاصير عديدة لايواء طلبة العلوم الشرعية ولكل من هذه المقاصير مدفأة وفوق كل منها قبة، وعلى أبوابها قطع جميلة من القيشاني الدمشقي (القرن العاشر ١٦) ذرعها ١٢٣× ٩٢.

وفي غربي هذه التكية تكية أخرى أصغر من الأولى بناها السلطان سليم سنة ٩٢٢ إلا أن أكثر مقاصر الجامع المذكور قد أشغلته مختبرات ومكاتب المعهد الطبي العربي وحسناً ما فعلت وذرعها ٤٢×٤٠.

ثم من أمام حوانيت حقيرة البناء كلها مراتب ومعامل لإصلاح السيارات ويمكن الرجوع إلى المدينة إذا سار من أمام التكية متبعاً ضفة نهر بردى اليمنى فيمر من أمام بناء فيه معهد الحقوق ودور المعلمين الابتدائية ثم يقطع الطريق العريض الصاعد نحو محطة السكة الحجازية، ثم يمر من أمام دار المصرف السوري وإدارة الشرطة و (سراي الحكومة) التي بناها ناظلم باشا في سنة ١٣١٧ هـ وكان مكانها (حديقة بلدية) ومن يسار دار البلدية فيجد نفسه في ساحة المرجة التي بدأ منها، وفي شمالي هذه الساحة فندق كبير باسم (أمية) ودارين كبيرتين الأولى للعدلية والثانية للبرق والبريد والاثنان قديمتان وتحتاجان للتبديل.

الصالحية - قرية كبيرة من ضواحي دمشق في سفح جبل قاسيون، كانت فيما مضى منفصلة عنها ثم اتصلتا منذ ثلث قرن جادة طويلة على جانبيها دور حديثة ما برحت تتسع نحو الشرق والغرب وتتضخم.

لا ريب في أن اسم الصالحية نشأ من كثرة ما في هذه الضاحية من الأضرحة والمزارات والمدارس والمساجد والمستشفيات التي شيدت فيها في القرن ١٣ ويقطن في الجانب الشرقي منها المسمى بحي الأكراد جالية من الكرد الذين كان بدء مجيئهم وهم من عهد صلاح الدين ثم تتابع ورودهم والجانب الغربي منها المسمى بالمهاجرين فهو حديث العهد ويزداد اتساعاً وعمراناً يوماً بعد يوم.

لابد من زيارة حي الصالحية وإن كانت مبانيها الأثرية عسيرة البلوغ، يجد فيها السائر نموذجاً مفيداً من الأحياء الآهلة، لاسيما من هذا الحي يمكن الإحاطة بوضع دمشق ومشاهدة منظرها العام ورياضها وغياضها المحيطة بها.

يركب السائح من المرجة إما بسيارة أو الترامواي وهذا الخط طوله من المرجة إلى المهاجرين نحو ٣,٥ كم ويقصد الجسر الأبيض على نهر تورا أحد فروع بردى فيمر من شرقي المستشفى العسكري أحد مآثر إبراهيم باشا ودار مجلس النواب السوري ويمر السائر من أمام مسجد المارديني وعلى سقف باب الدخلة عتبة خشبية

جميلة منقوشة، ويصعد نحو الشمال في (طلعة حمام المقدم) التي لا تزال على شكلها الأثري، ثم إلى أن يمر من فوق نهر يزيد أحد فروع بردى أيضاً، ويصل إلى شارع حي الصالحية الممتد طولاً من الشرق إلى الغرب فيجد نفسه أمام مدرسة الأمير جهاركس فخر الدين الصلاحي ١٢١١/٦٠٨ درست هذه المدرسة ولم يبق منها سوى قبتين عظيمتين أعلاها متهدم وجدرانها حجر بخيت وكان نائباً عن الملك العادل ببانياس وقلاع تبنين وهو من أرباب الهمم العالية وفيها ضريحه وله قبتان وهنا في الشارع حركة مرور وعبور وبيع وشراء وحوانيت بدالين وبقالين ومزينين وغيرهم.

ثم يستمر السائح صعداً نحو الشمال ماراً من الجهة الشرقية للمدرسة الجهاركسية، في زقاق صاعد حوله بيوت جلها من اللبن أبوابها قديمة أثرية، وأرضها وباحاتها كانت أخزمة إلى أن يصل إلى مقبرة وضعت في سفح هذا الجبل المسمى قاسيون. ولا فائدة من التوغل أكثر من ذلك إلى قمة جبل قاسيون، إذ ليس المنظر أبعد مدى ورؤية سلاسل لبنان الممتدة في الغرب لا توازي الجهد في هذا المحتاج لأكثر من ساعة.

والواقف حول المقبرة يرى بادىء بدء عن كثب سطوح بيوت حي الصالحية القديمة والحديثة والمئذنة التي تنحدر بسرعة كالدرج وعن بعد يرى مدينة دمشق القديمة، والبساتين الخضراء الملتفة تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم، وفي الوسط يرى مآذن الجامع الأموي الثلاث وقبته الشامخة قد سمت نحو العلا وعن بعد في الجنوب يرى حي الميدان الممتد كالخط الرفيع، وعلى اليسار حي النصارى والصحراء تبتدئ تقريباً عند حدود الشجرة الأخيرة من بساتين الغوطة وفي كل الجهات تتجلى لناظرها أجمل مناظر دمشق وما يحيط بها من الآفاق المسدودة بآكام وجبال، منها على اليسار الآكام الذاهبة نحو طريق تدمر، ومنها على اليمين الأوعار المتموجة في حوران والصفا.

ويرجح أن يأتي السائح إلى مشاهدة هذه المناظر قبل الغروب فيجد نفسه حينئذ في ظل جبل قاسيون ويتمتع أكثر بمنظر المدينة.

ويمكن الوصول إلى هنا أيضاً إذا ركب حافلة الترام من المرجة حتى جامع الشيخ محي الدين القرن ١٦ وطول هذا الخط نحو ١ كم وفيه وسط بهو مزين

بالقيشاني الحجري ضريح الشيخ الفيلسوف العربي الشيخ محي الدين بن محمد الحاتمي الاندلسي المعروف بابن العربي المتوفى سنة ٦٣٨/١٢٣٠ وحول الضريح شبك من الفضة القرن ١٩ وفي جانبه ضريح الأمير عبد القادر الجزائري[1] وضريح واليين عثمانيين أمين باشا سنة ١٢٧٧ وناشد باشا في سنة ١٢٩٣ وإذا سار من الجامع ومنها نحو الشرق في طريق حي أبو جرش وحي الأكراد بجد مدارس أثرية عديدة منها في حي أبي جرش مدرسة الصاحبة وهي ربيعة خاتون أخت صلاح الدين الأيوبي، بنتها لمحمد بن الفرج بن الجوزي ودفنت فيها في سنة ٦٣٤، وهي اليوم مدرسة ابتدائية ثم في حي الأكراد يصادف المدرسة الركنية بناها الأمير ركن الدين منكورس من مماليك الملك العادل أبو بكر وضريحه فيها وفي حي أبي جرش جامع الحنابلة بناه أبو عمر محمد المقدسي الجماعلي وكان ديراً قديماً، وهو أول من نزل الصالحية في سنة ٤٩٨ وسميت باسمه لصلاحه ثم أكمله الأمير المظفر لابن الدين كوكبوري صاجب اربيل، وفي صحنه أعمدة أحدها من الغرانيت ذات تيجان أثرية وفي حرمه ثلاث مزاعب ذات سقوف خشبية (جملون) وفيه منبر خشبي بديع النقوش تاريخه ٦٠٤، ويحج النساء إلى هذا الجامع كل سنة في شعبان ويطرقون حلقة بابه ويزعمون أنها تنفع لتقدير حظوظهن، وفي هذا الحي المدرسة العمرية، بناها أبو عمر المقدسي، وهي خراب، كانت عامرة إلى أواخر سني الحرب العامة.

ونحو الشرق في طريق بين المدارس والسكة يجد على يمينه التربة التكريتية التي بناها تقي الدين الصالح التكريتي سنة ٦٩٨ وعلى يساره المدرسة المرشدية، وفيها ضريح خديجة خاتون بنت الملك المعظم عيسى في سنة ٦٥٠ ولهذه المدرسة قبتان ومئذنة مربعة مهجورة تعد أقدم مئذنة في دمشق ثم المدرسة القرنشية (داخل بيت المناع) وفيها قبة مخصصة الداخل ذات نقوش بديعة.

وقد هدمت حديثاً الدور وأقسام السور الذي كانت على يمينه وجعلت ساحة عامة. المذكور نحو الجهاركسية (ونحو حي ابي جرش ثم حي الأكراد الذي بعده

---

(١) نقلت رفاته مؤخراً إلى الجزائر

يحوي على يمينه ويساره آثار جدران وأبواب مدارس وزوايا كلها قد اندثر وتبدلت معالمه).

أما المنظر الذي وصفناه فإنه بالإمكان رؤيته من آخر حي المهاجرين في غربه الأقصى وقرب قبة السيار[1] لكنه اقل إشراقاً ونفعاً.

حي النصاري - حي النصارى أو حي باب توما قد كان خرب بالمرة في حادثة سنة ١٢٧٧/١٨٦٠ التي أوجبت وقتئذ مداخلة فرنسا، وقضت على أكثر من ٨٠٠٠ شخص رغم إسعاف الأمير عبد القادر الجزائري ذلك فإن مزايا هذا الحي أقل من غيره لولا وجود الذكريات الخاصة بالقديس بولص.

يمكن الوصول إلى حي النصارى إما بالمركبة أو مشياً من الشارع الجديد العريض المسمى بشارع بغداد فتح سنة ١٩٢٦ بين البساتين ولا يزال فارغاً من الدور إلا قليلاً يمر في وسطه على مقبرة الدحداح المنسوبة للشيخ أحمد بن أبي الدحداح المتوفى سنة ٣٢٨ فيصل فوراً إلى مستشفى القديس لويس الفرنسي وثمة حي يعد من أرياض دمشق اسمه حي القصاع وهو تتمة حي باب توما يمتد شمالاً على طرفي الطريق الذاهبة نحو بغداد وتدمر وحلب وينحرف السائر هنا نحو اليمين، وبعد مسافة برج الروس يجتاز جسراً قائماً فوق نهر برجى فيلج (باب توما) الذي يعود بناؤه الحالي إلى أواخر القرن ١٣ والشارع الذي يسير في هذا الباب يعد الشريان الخاص بحي النصارى يشاهد فيه على اليسار دير التراسانتا الأرض المقدسة لرهبان اللاتين، ووراءه دير الآباء العازاريين. ثم يصل إلى مصلبة في قربها ثكنة قديمة اسمها (العثمانية) فيلاقى الطريق الطويل الذي يشق دمشق من الغرب إل الشرق. وهو الشارع المستقيم في العصور القديمة المذكور في سير الرسل الحواريين ٩ و ١١ ومما لا ريب فيه أن أعمدة كانت تمتد حول هذا الشارع، ثم ينحرف نحو اليسار عند الثكنة المذكورة ويستمر في سيره نحو الغرب فيدخل حي إليهود، وإذا انحرف نحو اليمين يصل إلى سوق مدحت باشا، وإذا تابع السير في أول درب ينحرف إلى اليسار

---

(١) سمي برج الروس لأن تيمورلنك بعد احتلاله دمشق قطع رؤوس الرجال وجعلهم كالبرج في هذه المنطقة وقد كانت عادة المغول كذلك في المدن التي يفتحونها.

قبل الوصول إلى الباب الكبير المفتوح في منتهى الشارع، يصل إلى بيت القديس حنانيا الذي استرد فيه القديس بولص بصره وهذا بازيليكا (من القرن ٥ ـ ٦) التي يمكن تمييز أنقاضتها في الطلوع على سطح الكيللا، وبعد أن قلبها المسلمون إلى مسجد استعيض عنها بمغارة الموتى التي يمكن زيارتها ـ أما الباب الشرقي الذي فيه منتهى المدينة هو أحد الأبواب الرومانية القديمة في دمشق، أبقاه العرب على حاله.

فالفجوة الشمالية منه وحدها هي المستعملة الآن، أما الوسطى التي كانت أعرض من ستة أمتار والفجوة الجنوبية فقد سدتا واستتر قسم منها بمخازن معمل النعسان الذي يصنع فيه أواني نحاسية وخشبية مرصعة.

وإذا وازى في سيره نحو الجنوب السور المحيط بالمدينة يرى على بعد نحو ٣٠٠ متر من الباب الشرقي المكان الذي يقال في الأساطير أن القديس بولص قد تدلى منه بواسطة السلة بعد أن سجن في دمشق وهو باب مسدود له مقام، ثمة كنيسة صغيرة تدل على هذا المكان كايلا كنيسة صغيرة.

ويمكن الوصول إلى الشارع المستقيم إما بالرجوع نحو الباب الشرقي وإما بمتابعة السير حول السور حتى شارع السير خضوري[1] الذي يلج فيه السائر، وثمة مدرسة حديثة لليهود تأسست بمال هذا الثري، وبعد اجتياز حي اليهود يصل إلى حي الخراب وأكثر سكانه شيعة ثم إلى سوق مدحت باشا.

انحاء دمشق

رحلات نحو بحيرات المرج والبحيرة: هذه الرحلات تعطي فكرة عن بساتين دمشق المعروفة في العصور القديمة، وأرض هذه البساتين ذات خصب ممتاز وهي تزرع دائماً وتقطن، ويوجد فيها بعض خرائب قديمة.

من دمشق إلى الهيجانة ٣٢ كم طريق معبدة ثم مجاز قد يتعسر يخرج من دمشق من الباب الشرقي ثم يحاذي السور ويمر من أمام الكنيسة الصغيرة المنسوبة للقديس بولص وعلى بعد بضعة أمتار ينحرف نحو اليمين ويسلك طريقاً في أوله مزار إسلامي

---

(١) ثري يهودي والشارع اسمه (امتداد شارع الخراب أو شارع الأمين)

صغير وقبتان وبعده حي حقير لمهاجري الأرمن ثم مقابر فخمة للنصارى واليهود، ثم عدة بساتين جميلة.

في الكم ٣ قرية جرمانا، أهلها دروز، اختصوا بصناعة نسج العبي (صداري حمر من صوف المعزى) وبعد الخروج منها يأخذ طريق اليمين بين مزارع القنب الجميلة.

في الكم ٧ الخيارة ـ مزرعة كبيرة، على اليمين يلحظ الجبل المانع ـ في الكم ١٠ على اليسار مزرعة شبعا، و من ثم يدخل الطريق هذا في سهل فسيح على اليسار خط سور دمشق بناء السور مختلف الأشكال والحجارة، فالمدماكان الأولان من بناء الرومان ومافوقها من بناء العرب ومن عهد الايوبيين والمماليك، لأنها قد خربت في المحاصرات، ثم جددت مراراً وأكثر أبراج هذا السور أصبحت متهدمة أو كادت، في أحدها اسم نور الدين سنة ٦٦٤، وفي هذا السور عدة أبواب ١ ـ الباب الشرقي، وقد تقدم ذكره ٢ ـ باب كيسان الذي رمم وجدد حديثاً ومن جانبه تدلى القديس بولس وهرب، وعلى خارج هذا الباب وشرقيه مقابر النصارى وهي محفوظة بالجدران، ٣ ـ الباب الصغير في الجنوب الغربي من المدينة وفي قربه مقابر المسلمين التي مابرحوا يستعلمونها منذ الفتح الإسلامي، بينها قبور مئات الألوف من الملوك والأمراء والعلماء ولاسيما مؤسس الدولة الأموية معاوية بن أبي سفيان ٤ ـ باب الجابية ٥ ـ باب النصر تهدم سنة ١٨٦٣م ٦ ـ باب الفرج وصار يسمى باب المناخلية وهو في شمالي القلعة ٧ ـ باب الفراديس وصار يسمى الآن باب العمارة ٨ ـ باب السلام بناه الملك العادل أبو بكر في سنة ٦٤١هـ وعليه اسمه. ٩ ـ باب توما. وهو ضريح أبي ابن كعب بن قيس الخزرجي الأنصاري الصحابي سيد القراء في عهد الرسول. المنسوجات الدمشقية مملوك من الحور يدل على الزور وهو على وادي بردى، على اليمين كتلة جبل الشيخ، وإذا نظر السائر إلى الوراء يتمتع بمشاهدة جبل آنتي لبنان.

في الكم ١٢ حتيتة حديثة التركمان ـ في الكم ١٤ على المصلبة، الطريق اليسار المنيحة مباشرة إلى الهيجانة، أما طريق اليمين فيصل في الكم ١٧ إلى قرية قرحتا، ثم في الكم ٢ إلى قرية كبيرة اسمها الغزلانية، وهنا زي النساء يسترعي

النظر (يتضمن شالاً أحمر فوق نهودهن)، ويصير السهل كلما تقدمت أجرد وقفراً، في الكم ٢٦ تل مسكن، ضيعة فوق تل ترابي.

في الكم ٣٢ الهيجانة، قرية كبيرة مبنية في سفح أكمة على قمتها مخفر عسكري (أسس ٦٤٩م) وفيها تجارة الحبوب المختلفة من قمح وذرة وفي الجنوب الشرقي من الهيجانة وعلى بعد نحو كم منها تمتد بحيرة الهيجانة التي يصب فيها نهر الأعوج، ومن الهيجانة يمكن الوصول في ٢٥ كم إلى طريق مجاز كسوة ـ شهبا (جبل العرب) وذلك قبل قرية الصورة الكبيرة بقليل ومثل ذلك أيضاً بعد ٩٠ كم يوصل إلى الزلف في مجاز جبل السايس.

وأخيراً يمكن الوصول من الهيجانة إلى طريق دمشق ـ عتيبة (سيأتي ذكره) الماء بحران العواميد والبلالية إلا أن اجتياز هذا الطريق عسير من كثرة الأنهار والسواقي التي تعترضه، رغم الجسور التي عليها لأنها خطرة وغير متينة، في الكم ١٠ من هذا الطريق قرية الكفرين، التي تلاقي فيها نهر بردى، وتكثر في هذه الأراضي المستنقعات وحقول القنب وهو يجود جداً. وفي الكم ١٢ حران العواميد قرية جميلة وخلابة تجد هنا أزياء النساء اللواتي يغلب أن يكنَّ هنا على جمال نادر الأمثال، ووسط دور هذه القرية قد سمت ثلاثة أعمدة من الطراز الأيوني ومن حجر البازلت ومن عهد الرومان. وفي جامع القرية يوجد أيضاً بضع قطع أثرية مكسرة عليها نقوش نسور ونبات الخرشوف، وتيجان أعمدة مستعملة، وحجر تكريس كان مخصصاً لقسطنطين (٣٣٦ ـ ٣٣٧) عليه كتابة يتعذر قراءتها وفي الكم قرية العتيبة التي سميت باسمها.

الغوطة ـ ناحية كثيرة المياه نضرة الأشجار متجاوبة الأطيار مونقة الرياض والأزهار ملتفة الأغصان خضرة الجنان تمتد مسيرة لا تقع الشمس على كثير من أراضيها ولا تبين القرى من خلال أشجارها وفيها قرى كثيرة.

انحاء دمشق

جولة إلى حرستا ودوما بحافلة الترامواي . في شرقي دمشق حي جميل يدعى القصاع، في شرقه حديقة جميلة محصورة بين فرعي نهر بردى يدعى الصوفانية تحتاج للتوقف في كنيس جوبر حجرة تحت الأرض يتوافد إليها الزوار للاستشفاء ظناً بأن هذه الحجرة كانت مسكناً للنبي إيليا الخضر ، ويمكن أن تصل السيارة من الهيجانة إلى قرية العتيبة في دعس صيفي يتجه شمالاً فتمر بقريه جديدة الخاص ثم بالكفرين ومن الكفر دعس ينشط نحو الغرب الشمالي فيمر في الكم ١٧ جعيدية، في الكم ٢٠ دير سلمان . في الكم ٢١ البلالية ضيعة مختبئة وسط المستنقعات. في الكم ٢٣ جسر حديث على نهر بردى من طراز البناء العثماني. في الكم ٢٤ قرية النشابية ، وهنا يلاقي الطريق الآخذ من دمشق إلى العتيبة.

ب . من دمشق إلى العتيبة _ ٣١ كم مجاز صالح مع بعض الحذر، يخرج من دمشق من حي القصاع وينحرف فوراً إلى اليمين ليلج طريق بساتين الغوطة، وهنا كل اللطافة التي يضرب بها الأمثال. لغوطة دمشق تفوح من هذه الخضرة الغضة لأشجار الجوز والمشمش والحور المصطفة حول ماء جار رقراق. عين ترما وفي الكم ٧ كفر بطنا . في الكم ٨ جسرين، قرية كبيرة جميلة جداً وسط البساتين، ودورها جيدة البناء في مسجدها ترى بضعة قطع من أنقاض أثرية، كتيجان أعمدة وأسس جدران وكتابات يونانية تاريخها ١٩٦ ق.م . في الكم ١٣ بيت نائم وهنا زي النساء يعجب الناظرين، فلهن أقبعة كبيرة واسعة وردية الشكل أو زرقاء على نسلية بيضاء التي رونقها الخفيف يأتلف تماماً مع لطافة منظر هذه البقاع، يترك هنا على اليسار مجازاً صالحاً يمر بقرية الشفونية.

في الكم ١٦ حوش الصالحية، مزرعة كبيرة منفردة، وهنا تزداد رطوبة هذه الكورة ويبدأ برؤية الجواميس ثم ينحرف الطريق نحو الجنوب الشرقي لتصل قرية حزرما في الكم ١٩ النشابية قرية سكانها ١٦٥ ، مركز ناحية ومخفر درك، ومركز هاتف، ومن هنا يمكن ان تبلغ مباشرة الهيجانة من حران العواميد وقد تقدم.

في الكم ٢٣ القاسمية، قرية نفوسها ٢٣٥ وإذا خرجت من القرية، تأخذ اليسار وتجتاز أحد فروع بردى، في الكم ٣٢ العزيفة ضيعة حقيرة . في الكم ٢٧ قرية العبادة تلفون عند المختار . قرية كبيرة، نفوسها ٤٨٧ وسط القصب والحلفا، في الكم ٢٩ و ٣٠ يجتاز فرعي بردى عليهما جسور غير متينة، في الكم ٣١ قرية العتيبة كبيرة نفوسها ١١٢٣ فيها مخفر درك.

هذه آخر القرى في الجهة الجنوبية الشرقية على حدود الصحراء، وهي تكاد تكون وسط القرى قوس الدائرة الذي تؤلفه بحيرة العتيبة، وهذه البحيرة بطيحة واسعة لا مخرج لمياهها ولا جريان، تتألف من مياه بردى التي تصب فيها وتضيع ومن اجتماع مياه السيول والأمطار القادمة من الشرق والغرب التي لا تستطيع أن ترشح في هذه الأراضي غير القابلة للنفوذ وتختلف سعتها حسب المواسم، ففي الشتاء قد تمتد في مساحة طولها نحو ٧ كم وعرضها ٢ كم من تل رمدان في الشمال إلى رجم المداوير في الجنوب. أما في الصيف فتنقلب إلى شبه مستنقع، وفي الخريف تجف بتاتاً، وفي أيام الحر تردها الأعراب وتروي مواشيها، ويزرع أهل القرى المجاورة وخاصة العتيبة الذرة في قيعانها التي تنحسر المياه عنها.

وقد انتشرت الملاريا بحكم مجاورة هذا المستنقع في أهل القرى المجاورة، ويلحظ الناظر إليهم وجوههم الصفراء وأطحلتهم الضخمة، كما يلحظ أسراب البعوض، وقد حاولت الحكومة الشامية تجفيف هذه المستنقع وإزالة أسباب وخامة الهواء لكنها أخفقت، ويكثر وجود الخنازير البرية والطيور المائية ولاسيما البط في كل الشتاء ولو أن صيد ذلك يكاد يكون مستحيلاً من صعوبة الوصول.

من دمشق إلى بعلبك

في السكة الحديدية ١٠٧ كم ٣.٥ ساعة يتبدل القطار في رياق، وسيأتي وصف هذا الطريق فهي من دمشق إلى رياق ٨١.٧ كم ومن رياق إلى بعلبك ٢٥.٦ كم في الطريق المعبدة، أما عن طريق بيروت الذي ينفصل إلى بعلبك في شتورة، ٧٣ كم من دمشق إلى شتورة و ٣٨.٥ من شتورة إلى بعلبك، وسيأتي وصفها، وأما عن وادي بردى

١٢.٥ كم طريق غير معبدة لكنها صالحة، بعد السير في الطريق الذاهبة إلى بيروت نحو ١٥ كم، وعند الصعود من وادي الهامة، وفي أول صجراء الديماس، يترك طريق بيروت وينحرف نحو اليمين فيأخذ الطريق الموطأة للسيارات غير المزفتة بعد الذاهبة نحو الشمال الغربي، الهابطة نحو وادي بردى.

في الكم ١٨ قرية جديدة الوادي فيها ٢٨٠ نفساً ومحطة سكة الحديد التي علوها ٧٧٣ م يصطاف فيها بعض الدمشقيين.

وثمة طريق معبد ثانٍ وسط غوطة دمشق قد شرع في تزفيته وتم نصف ذلك، يبدأ من الباب الشرقي ويمتد شرقاً ماراً ببستان القواص ومن أمام حتيتة الحرش ومن حوش بالا ثم من حوش خرابو وفرع ينشط نحو الجنوب إلى مرج السلطان، ومن ثم إلى البلالية فدير سلمان فالحميدية فحران العواميد.

وثمة طريق ثالث وسط غوطة دمشق يبدأ من حي القصاع ماراً بجوبر في الكم ٥ وزملكا في الكم ٦ وينتهي بحمورية كم ٩ ومن زملكا يمكن الاتجاه شمالاً نحو عربين في الكم ١٠ ومنها إلى طريق دمشق- دوما في غربي حرستا.

أما طريق الترامواي الذاهب إلى دوما، فإنه يمر بموازاة الطريق الثالث المذكور فيمر بجوبر وزملكا وعربين وحرستا وينتهي في دوما، فجوبر فيها كنيس يهودي قديم يجتمع فيه يهود دمشق ذكرها ياقوت وفي هذا الكنيس مغارة اختبأ فيها النبي إلياس لما هرب من اضطهاد جزابل.

وطريق السيارات وتتجه نحو الشمال وتوازي السكة الحديدية وتتركها كما تترك نهر بردى على يمينها، ثم تظهر على عدوة الوادي اليسرى قرية الأشرفية في الكم ٢٠ سكانها ٢٠٠ مسلمون، وهنا على منحدر الوادي الأيسر نفق طويل منقور في الصخر الصلد من الجبل يصل الأشرفية بسيمة وهذا النفق هو قناة ماء تبدأ من فوق جسر الهوى الذي سيأتي ذكره، وتظهر تارة وتختفي أخرى، وتمتد حتى دمشق وما وراءها إلى خربة الماطرون في شرقي الضمير على ما تراءى لي من تعقب مجراها وهي عمل جبار عظيم مدهش حقاً، عرضها لا يقل عن ٨٠ متراً، وعلوها أكثر من ١.٥٠ وربما بلغ طولها ٨٠ كم.

في الكم ٢١ بسيمة على العدوة اليسرى أيضاً، قرية جميلة، دورها منتزه على طول العدوة، سكانها ٣٠٠ مسلمون، قد جثمت على عضد ذات انحدار سحيق نحو الوادي، وعند ملتقى بردى بأحد روافده، وفي العدوة اليسرى منحدر صخري هائل غاية في السمو والوقوف يلمح فيه كهوف مقبرية عديدة.

وإذا قطعت نهر بردى على جسر وتجاوزت قرية بسيمة، يمكنك الصعود نحو الشرق في مجازة سهلة تسير وسط وادٍ جميل وعميق وهو أحد روافد بردى، وبعد ٣٠ دقيقة تلمح على اليسار إخدوداً في الجبل، وحول هذا الإخدود قد حفر كثير من غرف الموتى، وثمة أدراج منقورة في الصخر وكان هذا الإخدود مفتوحاً يمر به طريق أثري يذهب نحو الشمالي الغربي - وإذا ظل سائراً في المجاز يصل بعد ساعة إلى المضيق الأثري الذي يمر بين الدريج وحلبون ويفضي فرع منه إلى منين وفرع ثانٍ إلى حلبون والبعد بين بسيمة وحلبون نحو ١٠كم، وبينها والدريج ٦ وبينها ومنين ١٢كم،.

في الرجوع على العدوة اليسرى من النهر يلمح مرة أخرى بقايا القناة المنقورة في صدر الجبل ثم يصل إلى مكان نزه فيه عين الخضراء وحوله بعض المقاهي والفنادق التي يقصدها الدمشقيون ولاسيما الطبقة المتوسطة منهم في الصيف بكثرة، وهناك يعلو الجبل على يسار الطريق علواً شاهقاً إلى نحو ٤٠٠ متر فوق الوادي، وهذا الوادي ينحرف في اليسار نحو الغرب، ويدرج على الصعود، وثمة كتابة فرنسية منقوشة على الصخر بأن هذه الطريق المسماة بوادي الدراجة، والوادي قبل بسيمة يخرق جدارين شاهقين أحدهما يدعى الجبل الشرقي وثانيهما الغربي، كما أن في شمالي بسيمة يزداد علو الجبال وانحدارها زيادة عظيمة فجائية حتى يبلغ العلو ١٨٨١ متراً في (قرنة النحلة) التي تبعد عن بسيمة نحو ٦ كم على خط مستقيم.

وأكثر ما يقصدونها في أيام الجمعة وفي الأيام ذات الليالي المقمرة يزدحمون في هذا الوادي الضيق بالمناكب، نساء ورجالاً وصغاراً وتراهم ما بين ماشٍ وواقف وجالس ومضطجع ومنتشرين على ضفتي بردى الصاخب الرائق يهرعون بالقطارات والسيارات زرافاتٍ وأسراباً يأكلون ويشربون أو يدخنون أو يتفاكهون بين خرير الماء

وحفيف الشجر وتغريد الحارين وزجل المطروبين ولفظ الذاهبين والآيبين، وفي الجملة تكون مشاهد تلك الأيام مما يجدر رؤيته وتحمد رسمته.

شقتها إدارة الأشغال العامة والجند الفرنسي في سني ١٩٢٧ ـ ١٩٢٩.

في الكم ٢٦ يشرف على قرية عين الفيجة، سكانها ٦٠٠، دورها مبثوثة على العدوة اليسرى على طول الوادي، تحت ظلال خضراء أحدثتها أشجار مكثفة من الجوز والحور والمشمش وكروم العنب والتين في منحدرات الجبل المرتفعة، وثمة محطة قطار، وبعد اجتياز جسر حجري على نهر بردى يمر وسط دور القرية ومن أمام مسجدها الصغير ذي المئذنة المتواضعة الجميلة، وفي قرية شجرة زيتونة مباركة تتدلى من أغصانها كثير من الخروق المطرزة المخصصة للنذور والبركة في شجرة التين في أفقة كسروان لبنان مثل هذه، وبعد هنيهة يصل إلى رأس نبع عين الفيجة.

إن نبع عين الفيجة (من كلمة بجه بمعنى عين) قد استعمل منذ أقدم العصور، واتخذ مكاناً للعبادة بدليل وجود الهيكل الروماني في قربها. ومياه هذه العين تنفجر بغزارة مدهشة من كهف في سفح الجبل الشاهق المطل على القرية من غربيها، ومن تحت سطح نصفه صخري ونصفه من الحجر المبني، وبعد انفجارها تجتمع في حوض كبير يمكن الاغتسال فيه أيام الصيف وبعد مسافة نحو ٥٠ متراً تنضم مياهها إلى نهر بردى وترفده بأكثر من نصف مياهه الآتي بها، فهي أجل قدراً أو سخاءً منه، وقسم ضئيل من مياه هذه العين النقية الباردة يؤخذ ضمن قناة حديثة من الإسمنت إلى دمشق ينهل منها أهلها وأول من ساقه إلى دمشق ناظم باشا.

وقد بقي من الهيكل الروماني الصغير المذكور فوق السطح الذي يعلو العين قسم من جدار مؤلف من رضام عظيمة، وتحته ببضعة أمتار بناء مستطيل الشكل ذرعه ٣٠×١١×٨.٢٠، وهو أيضاً مؤلف من حجارة ضخمة عظيمة. وقد ظلت جدران هذا الهيكل محفوظة، ويرى كوة واحدة وسط الجدار المتطرف المواجه للمدخل، ولما انتشرت النصرانية قلب هذا الهيكل إلى كنيسة، وجرى مثل هذا القلب وفي الوقت نفسه بدير مريم الخاص بالرهبان اليعاقبة، وهو في قرية (افرة) فوق عين الفيجة ويعلو الطريق عن الوادي وعن السكة الحديدية ويتجه نحو الغرب ويلمح

السائر بعد على العدوة اليسرى قرية دير مقرن وفيها مجاز يصعد نحو قرية افرة ٧ كم ثم يتسع الوادي ويمتلىء ببساتين الفاكهة وغياض الحور ولها مناظر جميلة.

في الكم ٣١ على العدوة اليمنى قرية دير قانون علوها ١٠٠٠ متر، فيها محطة قطار، وبينها جسر حجري على بردى، وفي قرية طاحون على العدوة اليسرى قرية كفر الزيت ذات الدور الراكبة فوق بعضها.

وفي دير قانون طريق ذاهبة نحو الجنوب تتصل بعد ٦ كم في خان الديماس بطريق دمشق ـ بيروت.

في الكم ٣٣,٥ على العدوة اليمنى ضيعة الحسينية (علوها ٩٤٠م) في العدوة اليسرى وإلى الشمال الغربي كفير العواميد، بينها وبين تل في قربه طاحون وفوق هذه القرية أنقاض هيكل وثني قديم بني فوق صخور بارزة، بينها كسور أعمدة وتيجان وفرونتون، وبعد كفير العواميد وفي العدوة اليسرى أيضاً ضيعة البرهلية، وبينها وبين بردى أطلال أثرية.

في الكم ٣٥ وسط وادي بردى المتسع قرية (سوق وادي بردى، ذات الدور المكتظة أحاطت بها الرياض وغياض الخضراء، وأشرفت على نهر بردى، وهو عندها يفتح ممراً بين جدران عالية ثخينة من الصخور.

قرية سوق وادي بردى، هي القديمة، قصبة المملكة المربعة التي ذكرها القديس لوقا (٣ ـ ١) وهي مقاطعة انفصلت في زمن ما عن مملكة شاليس (عنجر) .. في عهد القيصر طباريوس وحكمها رجل اسمه ليزانياس، وقد كانت هذه المملكة المربعة تحوي أيضاً شمالي لبنان حتى طرابلس، وجنوب فلسطين حتى البثانية واللجا (اليوم شمالي جبل العرب مع اللجا)، ولم تكن أبيلا مبنية فقط على الطريق المحاذي وادي بردى، بل بفضل مضيق وادي القرن، على الطريق الممتد من شاليس (عين الحجر) إلى دمشق ومن هذا نشأت أهميتها، وقد تعاقب الحكم على أبيلا فيليب تتدارك وآغريبا الأول وكان آخرهم دوس آغريبا. وأخيراً في القرن الخامس كانت مركز أسقفية وسقطت عام ٦٣٤ في يد المسلمين الذين استولوا عليها بمفاجأة حينما كان قائماً فيها المعرض السنوي (السوق في لغة العرب) لوادي نهر بردى، وكان مجتمعاً فيه كل نصارى تلك الأنحاء، ومنه نشأ اسمها الحالي.

لايزال يوجد وسط القرية بضعة أحجار أثرية منحوتة وكسور أعمدة، أما الخرائب الهامة فهي العدوة المقابلة في جنوبي سوق وادي بردى أكمة شاهقة تشرف على القرية (علوها ١٢٦٥م) تدعى جبل هابيل في ذروتها بناء عظيم تذكاري طوله نحو عشرة أمتار يسميه مسلمو هذه الأنحاء مزار (النبي هابيل) وهذه التسمية نشأت من الخلط بين آبيلة ليزانياس وآبيلة فلسطين ثم بعد مسافة قليلة وعلى قمة الأكمة المذكورة أطلال هيكل وثني قديم ذرعه ١٤×١٨ متراً في طرفه الشرقي كهف مقبرة وفي قربه مدارج نقرت في الصخر الصلد. وقد حولت هذه الأكمة فيما بعد إلى كنيسة. ثم يدرج الطريق في مضيق ضيق، في قعره يجري بردى، ثم ينحرف الطريق نحو الغرب ويجتاز بردى فوق جسر الهوى في قربه طاحون بينما يلج القطار في نفق تحت جبل هابيل المذكور.

يوجد هنا على المنحدر الذي فوق الطريق في العدوة اليسرى، قسم من سكة رومانية أثرية تنقطع فجأة على حافة هاوية، ويظهر أنها كانت تجتاز هذه الهاوية فوق جسر ذي قناطر عالية راكبة على الوادي، ولا تزال بعض أنقاضها مبعثرة فوق صدر الجبل.

وتمتد هذه السكة على طول يقدر بـ ١٨٠ متراً وعرض أربعة أمتار، وقد شقت طريقها في الصخر الصلد شقاً عريضاً كأخادير سكك حديد هذا الزمان، بعمق ٥ - ٦ أمتار، وثمة على حائطها الشرقي كتابات باللاتينية يفهم منها أن هذه الطريق قد رممت في عهد مرقص أوريليوس على يد الوالي لوسيوس فروس، وثمة أيضاً تحت السكة المذكورة مباشرة يوجد قناة ماء، تراها تارة مكشوفة وتارة منقورة نقراً عجيباً وتمتد إلى مسافة غير يسيرة في لحف الجبل، وهي من أقسام القناة التي تقدم ذكرها في بسيمة. ويمكن السير وسط هذه القناة والوصول إلى كهوف المقابر التي يراها راكبو القطار عن بعد أيضاً وكأنها معلقة فوق الهاوية. وهذه الكهوف ليست سوى غرف بسيطة كانت فيما مضى مغلقة بأبواب حجرية وجد أحدها على ضفة بردى، وفي داخل الكهوف مشاكي بشكل الأفران كانت تتخذ لوضع توابيت الموتى.

في الكم ٤٠ التكية، على اليسار المعمل الكهربائي المائي الذي يدفع بالكهرباء إلى دمشق، وهو يأخذ قوته من مسقط جدير بالنظر قوته ١٣٠٠ حصان بخاري، وتمر السكة الحديدية على اليسار فوق جسر على بردى. ويترك على اليسار طريق وادي الخشنة يتصل بعد ٥ كم بطريق دمشق - بيروت غربي خان ميسلون، ثم يلمح على اليسار محطة صغيرة باسم التكية علوها ١١٠٠ ومن ثم يتسع الوادي ويبدأ سهل الزبداني الخصب الفسيح، وينحرف الطريق نحو الشمال باتجاه مستقيم.

يمتد هذا السهل من الجنوب إلى الشمال بطول ١٢كم وعرض ٥,٢٥ كم، بين جبال شاهقة، فالغربية منها ذات منحدرات كأداء تشبه عرف الديك المتطاول من الشمال إلى الجنوب، وتدعى جبل البطرونة وتعلو ذروتها (١٨٨٥ متراً)، أما السلسلة الشرقية التي هي كتلة لبنان الشرقي الأصلية فتدعى بالنسبة إلى الزبداني الجبل الشرقي تعلو في بعض ذرواتها إلى (٢٠٧٥ متراً) وكان سهل الزبداني دون ريب قعراً لبحيرة قديمة ونحو ثلثه يروى، أما ثلثاه فلا يزال يزرع بعلاً.

في الكم ٤٥، وعلى بعد ٢ كم من يمين الطريق (مضايا) قرية كبيرة سكانها، ٢٠٠ نفس مسلمون، شيدت في منحدر الجبل، وركبت دورها بعضها فوق بعض، علوها ١٢٨٠ متراً، وهي مركز اصطياف لكثير من الأسر الدمشقية.

وفي أعلى هذه القرية وفي منكب الجبل مكان يلحظ فيه صخور عجيبة الشكل ذات لون رمادي أحيطت بسور من أشجار السنديان الشامخة، وهذا المكان يدعى "آية كرسي الملك" ومعناه علامة مسكن الملك مولوخ، ولعلها كانت "معصبة" ابتدائية، أو كانت عموداً مقدساً يعبد باعتباره رمزاً لبعل مولوخ، ولا يزال مسلمو هذه الديار يقدسون هذا المكان وتكثر أشجار السنديان المحيطة به.

وبعد مضايا يدرج الطريق نحو الشمال، وعلى بعد ٣,٥ كم من يمين الطريق "بقين" قرية صغيرة علوها ١٢٥٠م مركز اصطياف الأسر الدمشقية المسلمة، وفيها عين ماء ثرة عذبة باردة، ثم على بعد ٥,٥ كم من يمين الطريق مكان اسمه "الجرجانية" وفيه فندق حديث وينابيع كثيرة، وهو منتجع الدمشقيين في الصيف.

في الكم ٥١ الزبداني - بليدة سكانها ٧٠٠٠/٤٤٠٠ أكثرهم مسلمون والنصارى روم ارثوذكس، مركز قضاء الزبداني علو محطتها ١٢١٠م، بنيت في

أوطأ مكان من السهل، واكتظت دورها الحجرية الساذجة، أما الزبداني الحديثة فدورها جميلة منظمة.

وفي سفح السلسلة الغربية وجنوبها نبع بردى حيث العلو /١١٠٢/م والنبع يؤلف شبه بحيرة كبيرة مستطيلة راكدة، ومن ثم تنحرف مياهه نحو الجنوب وتحدث تعاريج عديدة وتسير وسط السهل في مجرى صغير إلى أن تبلغ التكية فتسقط في الوادي ذاهبة نحو دمشق.

قال الشهاب فتيان بن علي الأسدي الدمشقي المتوفى سنة ٦١٥ وقد أقام في الزبداني مدة وقد سقط عليها الثلج:

قد أجمد كانون بكل قدح ... وأخمد الجمر في الكانون حين قدح

يا جنة الزبداني أنت مسفرة ... بحسن وجه إذا وجه الزمان كلح

فالثلج قطن عليك السحب تندفه ... والجو يحلجه والقدس قوس قزح

حول الزبداني خرب أثرية ككفر عامر

ففيها دور حديثة جميلة حول محطة القطار، وفي مكان مرتفع ترى في البلدة القديمة وللزبداني دار حكومة بنيت ١٣١٩/١٩٠٣ ومسجد جامع وكنيسة ومستوصف، وفندقان يفتحان في فصل الصيف.

للزبداني ماضٍ يعود إلى أقدم العصور، وبعد انحطاط آبيلا أسس في الزبداني مركز أسقفية وبني دير عظيم، وقد ظلت عامرة إلى حين قدوم الصليبيين، ولكن المسلمين فتحوها وذبحوا ألف راهب كانوا في الدير المذكور وقلبوه إلى مسجد.

وحول الزبداني كروم وبساتين كثيرة في مساحة لا تقل عن تسعة كيلو مترات مربعة، ذات أشجار مثمرة مختلفة أخصها التفاح الذي يجود فيها كل الجودة

ويتنوع، الصنف المدعو بالسكري ذي اللون والرائحة والطعم الفاخر، ويليه الدرشاوي فالسكارجي فالخلاطي وثمة السفرجل.

ناهيك التفاح السكري المنقطع النظير في لونه وطعمه وعبقه، ومثل ذلك يقال عن بقية الخضروات والفواكه، ولو أنها دون الحاجة ككفر عامر، وكفر نفاخ، وغبتة، وعين الدلة، والكبرى، وعين التوت، وسفيرة.. الخ.

وهذه الخرب هجرت بسبب الكوارث والتجأ أهلها إلى مكان الزبداني فعمروه. كنخيل ابو الجن. أما العيون، فعين خرير وعين أبو زاد وعين الدولة وعين النسور في سفح جبل أبو الجن.

ومن هذه البحيرة ينفجر نهر بردى الأصلي ويسير في مجرى كثير التعرج وسط الحقول المتناثرة في سهل الزبداني وتأتيه روافد كثيرة.

وبعد الخروج من الزبداني يضيق الوادي مرة أخرى ويكاد يغلق. ويتبع سكة الحديد وطريق السيارات عدوة الوادي المائلة. ثم يترك الطريق السكة على يمينه أمام جدران جبل الشقيف الشامخة الهائلة الذي فيه معبد قصر يونان، ثم يعود الوادي للانفتاح.

في الكم ٥٨ عين حور، ضيعة في سفح جبل الشقيف، فيها عين ثرة تسقى مياهها أراضي هذه القرية، ومن ثم يزداد انفساح الوادي ويحدث سهلاً فسيحاً، وبعد قليل يصل إلى نقطة تقسيم المياه عند علو (١٤٠٥ متراً) ففي شمال هذه النقطة تجري المياه نحو وادي يحفوفة والليطاني والبحر المتوسط، وفي جنوبها تجري نحو سهل الزبداني وبردى، وبحيرة العتيبة.

في الكم ٦٢ سرغايا، قرية كبيرة وسط السهل، علوها ١٣٧٢ متراً سكانها ٨٠٠ مسلمون، وفي قربها محطة القطار ،، ذات هواء جاف ونقي، اشتهر أهلها بالجفوة، وفيها منظر جميل نحو الواديين، الشمالي منها مقفر، والجنوبي مخضر.

وفي شرقي سرغايا جبل شاهق اسمه جبل درة في منحدره كهوف مدافن ونواويس منقورة في الصخر الصلد، وصهاريج ماء ومعاصر وبقايا أعمدة تعود إلى هيكل وثني قديم. وعلى أحد هذه الأعمدة نقشت كتابة أثرية وللكهوف المذكورة

ستة أقواس وكوى لأجل التوابيت، ووراء الصخور أطلال غير ذات أهمية واضحة لقرية قديمة وسنديانة كبيرة في قربها بضعة قبور أثرية.

بعد سرغايا، في الكم ٦٤.٥ نقطة اجتماع رافدين، والأول لنهر يحفوفة، والثاني لنهر معربون، وعلى الثاني وهو أكبرهما يلمح جسراً حجرياً صغيراً من البناء العربي يعرف بجسر الرمانة. ومكانة هذا الحسر نشأت من أنه على طريق دمشق ـ بعلبك القديم.

في هذا الجسر مجاز كئود جداً يتدرج نحو الشمال ويتوقل الجبل الشاهق، ويمر بضيعة اسمها الخريبة.

ويجتاز وادي الصنوبر فيصل إلى قرية بريتال، سكانها ٢٠٠ جعفريون، (ويظن أن هذه القرية تقربمن بروتيا التي انتصر فيها النبي داود على الملك هاداد ايزر الآرامي واستولى منها على كميات كبيرة من النحاس، وفي هذه القرية أطلال أثرية. وبعدها ضيعة اسمها الطيبة، أهلها كاثوليك، ويجتاز فيها وادي الطيبة السحيق يلج وادياً صغيراً يتجه نحو الشمال ويبقى السائر فيه عن بعد مناظر جميلة في سهل البقاع وجبل لبنان. وأخيراً يصل إلى ضيعة اسمها عين الباردة، ومنها إلى بعلبك.

عودة: يترك الطريق على اليسار السكة الحديدية ويتجه نحو الغرب ومن يحفوفة يلحق برياق إذا تتبع مجرى وادي يحفوفة الظليل الندي، وإذا مر من أسفل قرية النبي شيت سكانها ٨٠٠ جعفريون واسم هذه نشأ من وجود ضريح فيها باسم النبي شيث.

أما إذا ظل الطريق متتبعاً ـ على العكس ـ السكة الرومانية القديمة الممتدة من دمشق إلى بعلبك أي وادي نهر معربون السحيق الموحش ـ يمر في الكم تقريباً ـ من أسفل قرية معربون. وفيها عين جبلية وأطلال أثرية ـ ويترك على اليمين تلعات كبيرة تختفي وراءها قرية الرميدة.

في الكم ٧٣ النبي شام، ضيعة في قربها مزار حديث للنبي شام، بني فوق أنقاض هيكل وثني قديم، والعتبة التي فوق المدخل طولها أكثر من أربعة أمتار، وفيها إشارة نذر تاريخها ١٧٢ ـ ١٧٣ والاسم كومة خامون وينحرف الطريق بعد نحو

الغرب ويجتاز الجبل الذي يفصل بين الوادي وبين سهل البقاع في الكم ٧٤ حيث عقبة باسم يمين البنية.

وبدلاً عن اجتياز هذه العقبة يمكن الاستمرار على جانب الوادي نحو الشمال من مدق يمر بالتتابع من شيبة وهي خربة هيكل وثني قديم، ثم اذا اجتاز المدق نهر الصنوبر وثمة انقاض السكة الرومانية القديمة ـ ثم عين العروس، وهي عين ثرة ـ ثم يجتاز عدة أودية صغار إلى أن يصل إلى رأس العين.

من طرابلس إلى حمص

في القطار ١٠٢ كم، يستغرق ٣ عة و ٣٠ دق.

إن محطة قطار شركة د.ج وتمديداتها تقع على بعد ١.٥ كم عن المدينة، يوصل إليها من شارع عزمي بك وإلى بيروت سابقاً ـ وتحاذي السكة البحر في امتدادها تاركة جنائن طرابلس إلى يمينها والبحر إلى يسارها، وتوازي في سيرها الطريق المعبدة التي سيأتي ذكرها.. في الكم ١٥.٨ محطة العبدة ـ في الكم ٢٩ محطة تل عباس وهنا ممر الحدود الفاصلة بين لبنان ومحافظة اللاذقية.

في الكم ٤٠ العكاري، في الكم٥١ تل كلخ، في الكم ٦٦ حديدة (والأصح أن تدعى وادي خالد) ـ في الكم ٧٧.٤ قزلاخر، وهنا الحد بين محافظتي اللاذقية وحمص، ـ في الكم ٩٠.٢ خربة التين ـ في الكم ١٠٢.٣ محطة حمص وهي تبعد ١.٥ كم عن البلدة.

في الطريق المعبدة ١٠٥ كم، وهي طريق جيدة، تحاذي بادىء بدء ساحل البحر ثم تنحرف نحو الشمال الشرقي.

في الكم ٣ قبة البداوي، (تقدم وصفها..) وبعدها يمر الطريق من بين منشآت وأحواض شركة النفط العراقية التي تأسست سنة ١٣٥٠/١٩٣٢ ثم يجتاز ثنية صغيرة اسمها النقور، على يمينها فجوات منقورة ومنحوتة في الصخر، ربما كانت حفر مقابر، ثم يهبط من الثنية ويجتاز سهلاً فسيحاً على يمينه طود عظيم شامخ العلو، أدكن اللون، من أعضاء لبنان اسمه جبل تربل، في سفحه ضيعات إسلامية

أسماؤها برج عمار وبرج اليهودية، وقرية المنية، وعلى يسار السهل جوف عكار الممتد نحو الشمال، فالمنظر هنا رائع يجمع بين الخضرة والزرقة.

في الكم ٩,٥ المنية ـ قرية كبيرة، سكانها ٢٥٠٠ أكثرهم مسلمون وقليلهم روم أرثوذكس دورها مبثوثة وسط البساتين والكروم الممتدة إلى مسافة بعيدة، اشتهرت ينابيعها الغزيرة وفواكهها الكثيرة، وهي قاعدة ناحية وفيها مخفر درك، وفي شمالها مزار باسم النبي يوشع في الكم ١٢,٥ خان كبير.

في الكم ١٤,٥ أرض ارطوزة، مكان اورتوزيا قديماً. وفيها كهوف مقبرية ثم يخرج السائح من طرابلس من (بوابة التبانة) ويتجه شمالاً ويجتاز طريقاً تحف به كروم الزيتون وتشرف عليه عن كثب آخر أعضاء لبنان المزدانة بغراس الزيتون، وضفتا الطريق لا تنقطع منها الدور والحوانيت المبثوثة.

نهر البارد فوق جسر حجري ذي عدة قناطر، ثم ينعطف الطريق إلى اليسار ويمر من أمام خان خراب يتركه على اليمين، ويلوح أن هذا الخان من بناء العصور المتوسطة.

في الكم ١٥ العبدة، هنا محطة قطار ومخفر درك، وعدة حوانيت ومطاعم للمنتزهين الذين يأتونها من طرابلس، وخان يودع فيه البصل الذي يصعد بالسفن الشراعية من هنا بكثرة إلى قبرص ومصر. وفي العبدة يتركون على اليمين طريقاً يتجه نحو الشمال الشرقي نحو حلبا .

في الكم ١٧ جسر فوق جدول، على يساره جسر السكة الحديدية. ـ في الكم ١٩ ينعطف الطريق نحو اليمين. ـ في الكم ٢٠ يعبر الطريق نهر عرقا. ـ في الكم ٢١ مفرق الطريق الذاهب إلى اللاذقية الذي يترك على اليسار. ـ في الكم ٢٣ تل عيات، على اليسار، وفي ذروة هذا التل بناء أثري صغير معدوم الاطراز، الأرجح أنه كان برج خضراء صليبي أو عربي.

في الكم ٢٤ يترك على اليسار مجاز يفضي بعد ٥٠٠ متر إلى قرية القليعات، وهي تقع قرب خرائب قلعة صليبية صغيرة قائمة فوق أكمة واطئة. إن منشأ هذه القلعة مجهول، ولم تعرف للمرة الأولى إلا منذ تملكها الفرسان الاستباريون وفي سنة ٦٠٤هـ ١٢١٧م استولى عليها الملك العادل أبو بكر بن أيوب في زحفه على

طرابلس، ثم استولى عليها الملك الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٨/٦٦٧، وكانت هذه القلعة بالاشتراك مع حصني عرقا وحلبا تحرس طريق طرابلس تجاه القادمين من حمص. ويدل مخططها المربع الشكل ووضعها المنتظم وأبراجها البارزة على أنها من أقدم القلاع العربية واللاتينية في بلاد الشام.

ثم يسير الطريق نحو الشرق في موازاة السكة الحديدية وعلى مقربة منها - في الكم ٢٨ جسر على نهر عكار - في الكم ٢٩ تل عباس، وفيه محطة القطار - في الكم ٣٤ الشيخ عياش، في كم ٣٥ خان العبودية.

من خان العبودية إلى صافيتا ٢٤ كم - ينحرف الطريق نحو اليسار طريق حمص، فيلاقي في ١ كم جسراً على نهر الكبير وارزونة ضيعة من أوقاف جامع طيغال في طرابلس.

شمالاً برشين وتين السبل وبيت ناطق وشرقاً مريمين والطيبة وعرقايا والشراقلية من قرى قضاء حمص وغرباً مقلس وحدى وحاصور وعين الفارة.

وعلى بعد ٦ كم، وفي طريق معبدة مزفتة (بلودان)، قرية كبيرة مرتفعة عن الزبداني، علوها ١٥٠٠، سكانها ٧٠٠ أكثرهم نصارى، ذات هواء غاية في الجفاف والجودة، وكذا الماء في جودته، ووفرة ينابيعه وهي أجمل وأصح مكان للاصطياف في منطقة دمشق، تزدحم فيها الدمشقية في الصيف، وتكثر الحفلات، والاجتماعات الأدبية والسياسية، وفيها فندق عظيم حديث للحكومة ذو ١١٥ غرفة، وفندقان آخران صغيران، وفيها كنائس لطوائف الكاثوليك والأرثوذكس، ومعبد مدرسة للبروتستانت، ومسجد للمسلمين، ومنظر بلودان نحو سهل الزبداني رائع وبديع جداً، ويشرف منها في الأفق الجنوبي على جبل الشيخ وفي الأفق الغربي سلسلة جبال شاهقة تشبه جداراً صخرياً يمتد أعلاه كالخط، وهذه السلسلة تشرف من الوراء على قرى يبوس وكفير يبوس والجديدة، أما الأفق الشرقي في بلودان فقد شد بجبل الشقيف وبآكام وقمم تذهب صعداً إلى جرود ممعنة في العلو والبعد والتجرد إلا من آبار ضئيلة لحراج قديمة من سنديان وغيره. وفي أعلى بلودان منتزه جميل على عين أبي زاد يقصده رواد القصف.

حوالي بلودان - أولاً، الصعود إلى جبل الشقيف ١.٥ ساعة على الخيل، (العلو ٢٠٧٥ متر) من ذروته منظر رائع على سهل البقاع، ثانياً - قصر اليونان - هيكل وثني قديم لا يزال بعض أطلاله ماثلة، بني في قرية وعرة شاهقة، في الشمال الشرقي من بلودان، يوصل إليها بعد اجتياز عين أبو زاد وعين الدولة وعين جل جرانك وعين النسور (٢٢٥٠م).

وعلى بعد ٨ كم إلى الجنوب الغربي من الزيداني (نبع نهر بردى) في سفح الجبل الغربي، وهو يؤلف بحيرة واسعة مساحتها نحو هكتارين، ماؤها راكد ورائق جداً، وفي وسطها عدد لا يحصى من الينابيع الصغيرة المتفجرة .

معلولا - (٦٠ كم إلى الشمال الشرقي) يستعار الطريق الذاهب من دمشق إلى حمص حتى خان العروس (في الكم ٥٠) ومن بعد هذا الخان ينفصل الطريق نحو الغرب الشمالي وهذا الطريق منعرجات عديدة صاعدة صعوداً خفيفاً، وهو يسير بمحاذاة وادٍ مغروس بكروم العنب، يضيق تدريجياً، بعد أن يترك على يمينه (في الكم ٥٥) عين التينة وهي قرية مرينة شيدت فوق نشز محاط بالأشجار وفيها نحو ٢٠٠ شجرة فستق. ومن ثم تكثر البساتين، إلى أن يبلغ بعد بضعة منعرجات إلى البيوت الأولى في قرية معلولا في (الكم ٥٩) وهي من أرقى قرى بلاد الشام، وأجل ما يلفت الأنظار فيها المشهد الرائع الذي للصخور العظيمة المحيطة بها والاكتظاظ الغريب الذي لدورها الراكب بعضها فوق بعض. وسكان هذه القرية ١٥٠٠ أكثريتهم الساحقة نصارى (روم كاثوليك) بينهم عدد ضئيل من المسلمين، وقد احتفظوا بلهجة خاصة من اللغة السريانية أو (الآرامية الغربية).

(إن هذه اللغة إحدى اللغات السامية الكبرى، كانت في عهد أكاسرة الفرس اللغة المستعملة عند عموم أمم آسيا الغربية. وقد كتبت بعض أسفار التوراة وبعض نقوش تدمر بهذه الآرامية الغربية. ثم إنها هي اللغة التي كانت تحكى في فلسطين في عهد يسوع المسيح. أما اليوم فقد اندثرت بالمرة. ولم يبق منها إلا هذه اللهجة المستعملة في قرية معلولا. وفي قريتين مجاورتين لها وسط هذه الجبال وهما جبعدين وبخعة.

وأزياء رجال معلولا لا تختلف عما يستعمله عامة سكان لبنان. أما أزياء النساء في معلولا التي تستعمل أيضاً في كل قرى هذا الجبل هي أكثر غرابة. وهي تمتاز خاصة بذوآبة طويلة من الهندي تلتف حول الرأس ثم تمتد وراء الظهر حتى الكعب).

إن قرية معلولا مبنية في صدر فجوة مسدودة من الصخور العظيمة، وعلى جانبي هذه الفجوة بنيت البيوت وبينها أشجار مبعثرة، واكتظت واختلطت بصورة عجيبة. وينفصل عن الفجوة شقان انفصالاً يشبه رجل حرف Y ، ففي الشق أو المسيل الأيسر يمكن أن يبلغ الزائر بدلالة أحد أولاد القرية إلى دير مار سركيس الكاثوليكي الذي يقع في ذروة المنحدر.

وهذا الدير من العهد البيزنطي وفيه كنيسة صغيرة ذات قبة راكبة على ياندانتيف، ويلحظ فيها تاجا عمود قد سترا بملاط. ومن بلكون (شرفة) الدير منظر ممتد رائع نحو القرية وبساتينها. ووراء الدير في الشرق يوجد هضبة صخرية قد نقر فيها عدد كبير من المقابر. وفي إحداها زخارف، يميز الناظر بينها حتى الآن نسرين قد بسطا أجنحتهما مثل العذراء.

وينزل الزائر إلى القرية من المسيل الوادي الشمالي من مهابط ضيقة كأداء لا تتسع في بعض الأماكن حتى لمرور رجل. وعلى جانبي الصخور آثار مجارٍ كانت توصل مياه الشرب إلى القرية. أما اليوم فتشرب القرية من ينبوع يقع عند مخرج الشق، أما دير الروم الأرثوذكس المنسوب لمار تقلا والكنيسة التي فيه ليس فيها ما يستحق الذكر. ولا يزال في معلولا بعض الأطلال الأثرية. نخص بالذكر نقشاً منخفضاً شوّه يمثل رجلاً وامرأة قد نقرا في الصخر. ولما رمموا كنيسة مار الياس الصغيرة القديمة عثروا فيها على فسيفساء من القرن الرابع الميلادي.

من معلولا إلى دمشق ماراً بصيدنايا (٣١ كم)، يسلك هذا الطريق الموطأ أولاً حضيض كتلة صخرية هائلة، ففي الكم ١ يترك على اليسار طريق خان العروس . في الكم ٨ يجتاز الطريق الآتي من خان العروس إلى جبعدين . في الكم ١٢ يهبط الطريق نحو قرية التواني فيمر بها عند الكم ١٥ . ثم في الكم ٢١ عكوبر، في الكم ٢٦ يدرك ثانية الطريق الممتد بين دمشق . يبرود المار بصيدنايا، وهذا الطريق يوصل إلى دمشق في الكم ٧٣.

٢ ـ حلبون، صيدنايا، يبرود إلى الشمال، دورة تستغرق نحو ١٠٠كم، ينفصل طريق صيدنايا عن طريق حمص عند المحجر الصحي الذي بعد جسر ثورا. فيجتاز بعد ٢ كم من المحجر قرية القابون وفي الكم ٤ قرية برزة. (وفي أسطورة إسلامية أن قرية برزة كانت الموطن الأول لإبراهيم (عليه السلام) وصارت مستقره بعد أن جاءها مع أتباعه. وقرب برزة في حضيض صخرة شاهقة عمودية مزار ولي مشهور يدعونه مقام إبراهيم.

ثم إن الطريق يلج وادي الجبل مستعيراً قعر مسيل أجرد هو ثمة وادي منين، فيمر في الكم ١٤ بقرية معربا، دورها متعلقة ومكتظة بصورة مرينة غريبة على جانب منحدر شاهق، ثم تبدأ الأشجار بالظهور ويعرض الوادي واسمه "وادي منين" ويزدهي بالبساتين وجل أشجارها من الجوز التي تنتج أجود الجوز في أنحاء دمشق ولو دعي هذا الوادي بوادي الجوز لكان أنسب، لأنه حافل بأكثر الجوز وأجوده في ضواحي دمشق.

وفي شمال معربا تجتمع مياه وادي حلبون مع وادي التل ومنين لتهبط نحو برزة المعروف وتنصب بعد في نهر تورا. وفي معربا أيضاً يترك الزائر على اليسار المجرى الأصلي لوادي حلبون المذكور، وثمة مجاز يمكن من سلوك هذا المجرى ويمتد نحو ٢.٥ ساعة فيصل إلى المضيق الأثري لحلبون بعد أن يترك على اليسار قرية الدريج.

في الكم ١٨ التل، قرية كبيرة، علوها ١٠٠٠ وسكانها ٣٢٠٥ مسلمون ودورها حجرية جميلة وفيها أسواق وحوانيت، ولأهلها براعة في نحت الحجارة والبناء، يشتغلون بذلك أفواجاً منهم في دمشق وغيرها. وفيها جامع كبير كأنه مصغر الجامع الأموي، حوله عدد كبير من القطع الأثرية كالأعمدة والحجارة المنحوتة، والكهوف المقبرية، وكلها يعود لمدينة قديمة لم يعرف اسمها . وبعد التل يصعد الطريق في منعرجات، ثم يهبط، فيبلغ في الكم ٢٤ منين، قرية كبيرة، علوها ١٢٢٠ وسكانها ٢٢٣٧ مسلمون، مركز ناحية ومخفر درك، وينبع ماء غزيرة ينساب إلى بساتينها وحوله مقام. وفيها كروم واسعة ويكثر فيها شجر الجوز وهو ضخم وجيد جداً.

كانت منين من المدن النصرانية. وكان فيها كنيستان شيدتهما القديسة هيلانة. وفي شمالي القرية صخرة شاهقة منحدرة تحتوي على كهوف منقورة في الصخر. تستحق الزيارة. ويوجد في العقبة التي تفضي إلى تلك الكهوف بقايا أعمدة وأحجار منحوتة وفي الذروة ينتصب عمود، ووراءه في الجهة الغربية تنفتح غرفة منقورة في الصخر، ذرعها ٨×٥ وعلو ٧ أمتار وتنتهي بكوة مربعة. وكان المدخل مزيناً برواق منقور في الصخر لا يزال ظاهر الأثر، وإلى بعد قليل نحو الشمال غرفة أخرى لا يزال مدخلها محتفظاً بحاشية مزينة تزييناً بالغاً. وإزاء هذه الكهوف على بعد نحو ١٥ م يوجد أسس بناء كبير منقور أيضاً في الصخر مع بقايا رواق. (قصر ماريا).

وفي منين مجاز يتجه نحو الغرب ويمكن أن يلحق ثانية بالمجرى الأصلي لوادي حلبون. وذلك في شمالي قرية الدريج بقليل، هذا إذا تسلق الزائر الجبل المنفرد الشاهق المقرن الذي يشرف على الوادي المذكور من شرقه. وثمة منظرة غاية في الروعة والبهاء على الغوطة ووادي بردى وجبل الشيخ.

وإذا عاد هبوط الوادي نجد طاحونة وسط بستان مشمش، والمكان جد مزين، ويجد ثمة مدخل مضيق حرج للغاية انحصر بين صخور عمودية ارتفاعها أكثر من ٣٠ م وفيه مجاز وجدول قد شق فأحدث مجال المرور، وينبع هذا الجدول من بعد ٢٠٠م عن ذلك المكان من عين تدعى (عين الصاحب) مقصد المنتزهات من دمشق.

وعلى الصخرة العمودية التي تشرف على المضيق المذكور من غربة ويلمح نصبان أو قبران من العهد الروماني، وعلى النصب الذي لناحية الغرب كتابة يونانية واضحة القراءة. وبدلاً من عبور الوادي إذا سار محاذياً الصخرة المذكورة نحو الغرب وتسلق الحواجز العمودية ومر من أمام نصب ثالث يصل خلال ١٠ دقائق إلى قبر كبير منقور في الصخر عرضه ٦م وعلوه ١٥ أحاط به عمودان جميلان يحملان فرونتوناً. ويتبادر إلى الظن أن السكة القديمة التي كانت تمتد من قرية سوق وادي بردى (أبيلا) إلى حلبون كانت تلف حول هذا الشنخاب الصخري، وبهذا يعلل وجود هذه الآثار.

وبعد عبور المضيق المذكور يسلك طريقاً يتبع وادي حلبون فيبلغ بعد نحو ساعة قرية حلبون، وهي مبنية في قعر وادٍ موحش تشرف عليه جبال شاهقة.

ويظن أن حلبون هذه هي القديمة التي ذكرها حز قيال (٢٧، ١١٨)، ويظن آخرون أنه هي التي ذكرها استرابون وبطليموس ونوها بشهرة خمورها. فالكروم لا تزال موجودة حول القرية بكثرة، لكن أعنابها لا تصير الآن خموراً بل زبيباً فقط. وكانت شالبيون من أعمال مملكة (ليسانياس) المربعة. ويلحظ في بيوت هذه القرية وجدرانها قطع أعمدة وأحجار منحوتة أثرية. وفي أسفل القرية يوجد مكان فيه هيكل. وجامع القرية بارز للعيان بمئذنته القديمة الشبيهة بالبرج. وأمام الجامع يوجد شبه طارمة تتألف من ثلاثة أعمدة أثرية قد أعيد تأليفها من عدة قطع ووضع على رأسها تيجان جميلة. وفي أسفل الجامع ينبوع ماء غزير.

ومن حلبون يمكن أن يبلغ وادي بردى خلال ٣ ساعة. ففي الساعة الأولى يبلغ المضيق الأثري وهناك يسلك مجازاً على اليمين (نحو الغرب) وبعد أن يجتاز هضبة (٢ ساعة) فيها منظر جميل يلج في وادٍ سحيق يجري فيه أحد روافد بردى ويصب في بسيمة.

ومن حلبون يمكن أيضاً أن يبلغ الزبداني ماراً ببلودان: يتوقل سطح الانصباب الأيسر لوادي البساتين وبعد ٢٢ دقيقة يهبط الوادي فيصل خلال ٤ دقائق إلى ينبوع ماء غزير يدعى عين الفاخوخ، ثم يعود للتوقل في الوادي الأصلي فيصل بعد ٢٦ دقيقة إلى مفرق، فيأخذ منه نحو اليمين مدة ٤٥ دقيقة وفي آخرها، يشرف على منظر رائع نحو غوطة دمشق، وبعد ١٧ دقيقة يهبط وادياً قعره (٢٦ دقيقة) مزروع، ثم يعود للصعود نحو اليمين فيخرج بعد ٢٤ دقيقة إلى هضبة صغيرة، وبعد ١٧ دقيقة ينزل إلى قرية بلودان (١٤٧٧م)، ومن بلودان إلى الزبداني طريق معبدة.

أو يمكنه أن يتجه غرباً فيمر بقريتي أفرة وهريرة الشاهقتين (١٤٥٢) والمشتهرتين بجبسهما الذي يصدر إلى دمشق.

عودة - وبعد منين، يزداد الصعود إلى أن يخرج إلى سهل فسيح يدعى سهل صديانا - في الكم ٣٤ يدور نحو اليسار تاركاً الطريق قبل بلوغ مفرق قرية المعرة، وهي ترى على اليمين وسط السهل ووسط الحقول المزروعة، ذات دور حديثة الطراز

نظيفة تشبه قرى لبنان تؤمها بعض الأسر المسيحية من دمشق للاصطياف وأمامها في الشمال في سفح الجبل وعلى بعد ٤ كم قرية صيدنايا التي تظهر كلها فجأة فوق ذروة أخرى صغيرة.

في الكم ٣٧ صيدنايا ـ قرية كبيرة، علوها ١٤١٥ وسكانها ٢٢٤٠ نحو نصفهم أرثوذكس، ونصفهم كاثوليك وثمة عدد ضئيل من المسلمين وفيها مخفر درك. وهي مبنية نصفها في السهل ونصفها فوق نشز على ذروته قد انتصب دير يشرف على القرية كأنه الحصن المنيع. بل هو يقوم أحياناً مقام الحصون ويلجأ إليه سكان القرية في أيام الفتن.

يعزى بناء هذا الدير إلى يوستيانوس، وفي الواقع أن قسماً كبيراً من الطوابق السفلى قديم. وقد كان طيلة عهد الصليبيين مزاراً يحج إليه في غاية من الاحترام الصليبيون وحتى المسلمون. لأن سلاطين المسلمين في دمشق كانوا يقدمون زيت مصابيح لهذا الدير. يدخل إلى هذا الدير، بعد تسلق عقبة كأداء مدرجة من باب ضيق واطىء ذي مصاريع حديدية، تعلوه ورود بارزة منقوشة من عهد النصرانية وبعد عبور الباب يجد الزائر نفسه وسط متاهة من الباحات والسلالم والقلالي والسطوح والممرات المسقوفة، وكلها قد بني دون أي تصميم مشترك، وفي ارتفاعات مختلفة. ولهذا يضل الزائر إذا سار وحده، إلا أن الراهبات (وهن من الروم الأرثوذكس) يتقدمن عن طيبة خاطر إلى إرشاده.

وليس في كنيسة الدير أي جاذبية خاصة، والقسم الأكثر نفعاً في الدير هو كايللا تحتوي على صورة عجيبة للعذراء. وهذه الكايللا (من العادة أن تخلع الأحذية عند الدخول) عبارة عن غرفة صغيرة ذات أضلاع كثيرة ضيقة وواطئة وبدون نافذة وقد لبست جدرانها بإيقونات مذهبة ـ والجدار الشرقي يحتوي على بيت قبر مقدس من الفضة، وفي هذا البيت الصورة العجيبة للعذراء قد حفظت وسط أيقونة، (ترى العذراء حاملة الطفل يسوع)، وتفسر زيارة هذه الصورة، بأساليب مختلفة ومهما يكن فأكبر وقت للزيارة هو ٢١ أيلول في كل سنة، يتقاطر فيه ألوف من الزوار.

وفي فصل الصيف يتوافد إلى صيدنايا عدد من المصطافين الدمشقيين، وهؤلاء يجدون في غرف الدير مساكن قليلة الكلفة.

وفي الدير سطوح واسعة لها مناظر ممتدة تشرف على قرية صيدنايا وسهلها. وعلى بعد نحو مائة متر من الدير بناء أثري صغير (هيكل أو ضريح) لايزال سالماً، قد حول في عهدنا إلى كنيسة باسم بطرس وكل الصخور المجاورة قد نقرت فيها كهوف مقبرية. وفي شمالي الدير ينتصب جبل اسمه جبل الثرا بين علوه ١٥٠٠ م على أسناده عدة كايللات مكرسة لبعض قديسي الكنيسة الأرثوذكسية.

ومن صيدنايا يمكن السفر إلى النبك ماراً بالهضبة التي تمتد بين كتلتي جبال آنتي لبنان. إلا أن الطريق لا يسلك إلا في الفصول الجافة ولا تقطعه السيارات إلا بعد قرية رنكوس. وتفصيله أن الخارج من صيدنايا يهبط نحو السهل فيدرك في الكم ٣٩ من طريق آخر، الطريق الذي تركه قبلاً، فيسلكه هذه المرة نحو الشمال الشرقي تاركاً على يمينه المجاز الذاهب إلى المعرة.

في الكم ٤٧ يترك على اليمين مجاز معلولا ويتجه نحو الجبل فيلج فيه قعر واد والطريق يزداد وعورة وصخوراً من مكان إلى آخر.

في الكم ٥٢ رنكوس - قرية دورها المبنية من الحجر المجفف تختفي وراء إحدى طيات الجبل، وليس في جوارها أي أثر للخضرة. ومما يلفت النظر فيها أن النساء يلبسن أثواباً حمراء.

ويخرج من رنكوس متوقلاً جبل الوز في صعدة غاية في الوقوف. ويرسم الطريق فيها خلال ٤ كم، عدداً وفيراً من المنعرجات الشديدة الخطر التي تمتد كالكورنيش فوق المسيل، (فالممر سقيم وخطر) حتى يبلغ في صعوده الهضبة (في الكم ٥٦) فيجد نفسه حينئذ إزاء السلسلة الأصلية لجبل سنير (انتي لبنان). ومن بعد هذا المكان يصير الطريق حصوياً تقاطعه في أماكن كثيرة أخاديد ذات مستنقعات.

في الكم ٦١ في اليسار ينفصل المجاز الذاهب إلى قصر نمرود طوله نحو ٨ كم وهو قرب نبع اسمه الجوزة ويلمح من بعد. (لم يبق من قصر نمرود سوى الجدار الغربي لقدس الأقداس للسيللا المبنية بأحجار وسط في ضخامتها وهي على وشك الانهدام التام، وسوى بضعة أعمدة للرواق الأمامي، وهذه الأعمدة من الطراز

الدوريكي ولا يزال على رؤوسها (آنتا ملجان) الأقسام العليا الحاملة للسقف. وواجهة الهيكل كانت في الشمال، وكان ذرعه نحو ٢٠م في ١٢,٥، وكان يستند في طرفه الجنوبي على أكمة في وسطها مغارة عميقة أما السيللا فقد كان ذرعها ١٠م في ٤,٥ وكل الأرض حول الهيكل مغطاة بأنقاض من الأعمدة، وقد وجدت بين هذه الأنقاض كتابتان أحدهما أغريقية والثانية سريانية. الأولى على عتبة مكسورة والثانية على عمود، ومعهما صليبان أغريقيان من الطرز القديمة قد رسما تحت الكتابة: فهذه الآثار تحمل على الظن بأن قصر نمرود إنما هو هيكل أغريقي، وربما كان من عهد السلوقيين، ثم حول إلى كنيسة في القرن الأول الميلادي. ويلحظ شكل البناء والبساطة البالغة في طرازه وسذاجة زخارفه).

في الكم ٦٢ على اليمين حوش مزرعة منفرد اسمه المعمورة. في الكم ٦٤ تل فطايا حوش ثانٍ اسمه تل فطايا حوله مرج فسيح يسيل في جانبه جدول عليه طاحونة، والعلو ١٣٥٠ . في الكم ٦٨ قرية عسال الورد أعلى قرى هذه النجود الشاهقة الباردة.

ومن بعد عسال الورد تزداد وعوثة الطريق وتقاطعه جلاميد صخور وأخاديد واسعة. في الكم ٧٥ قرية الجبة بيوتها من الأحجار المركومة.

ومن بعد الجبة يصير المشهد مطرداً كئيباً وسط هذه المرتفعات الجرداء البيضاء. في الكم ٧٩ ضيعة الكبرى مبنية على مدرج من الصخور. في الكم ٨١ معرة باش ضيعة قائمة على منحدر صخري. ومن ثم تعود الأرض للسهولة، وينحرف الطريق نحو الكتلة الجبلية المنسوبة لمعلولا. في الكم ٩٥ مفرق: ففي الشرق على بعد ٥٠٠ م رأس العين، وفيها عين ثرة تحف بها الأشجار. وثمة مقابر أثرية عديدة يعلوها منحدر عمودي قد نقرت فيه كهوف طبيعية. ثم يجد أمامه أكمة طبا شيرية في سفحها قد شيدت قرية يبرود حول ينبوع غزير جداً.

في الكم ٩٩ يبرود قرية عظيمة، علوها ١٥٥٠ سكانها ٤٤١٠، منهم ٢٦٣٢ مسلمون و ١٦٩٠ روم كاثوليك. وهي مركز ناحية ومقر مطرانية للروم الكاثوليك ووسط نصراني ذو شأن وفيها سوق حافل ومخفر درك.

كانت يبرود في العصور القديمة مكاناً ذا شأن وجزءاً من مملكة أغريبا الثاني. ولعلها كانت قبل ذلك من أجزاء مملكة ليسانياس المربعة فقدمها إلى أغريبا كلود سنة ٥٣م. وقد عثر المنقبون في روما على مذبح مكرس باسم جوبيتر مالك اليبرودي. (ماليس يبروديس) والقرية الحالية تؤلف مجموعة عظيمة، تحيط بها البساتين الغناء، وقد بنيت وسط دائرة واسعة من الصخور وفي حضيض أكمة طباشيرية. وليست مزية هذه القرية في موقعها بل في دورها المبنية من الحجارة الرخوة ذات البياض الباهر للعيون وفي شوارعها ذات الأقواس المصفوفة التي تجري فيها من مكان إلى آخر سواقٍ وجداول تحف بها أشجار الصفصاف، وفي أشكال سكانها ولاسيما النساء (ويكاد يكون عموم سكانها نصارى) الذين في هيئاتهم تناسب عظيم، وتختلف قليلاً أزياء يبرود عنها في معلولا. في يبرود لا يوجد أثرية ما عدا الكنيسة وهي من العهد اليزنطي، بيد أن يبرود من الضواحي الجليلة الشأن حول دمشق بحكم مزاياها الشديدة الاختصاص وبحكم استمرار عادات وصناعات محلية (كصناعة المنسوجات الغليظة من شعر المعزى والطاقيات من الدانتيلا. . الخ وفي دورة الأكمة الطباشيرية منظر جميل نحو القرية. ويمكن أيضاً التقدم نحو الجنوب إلى رأس العين ـ ومن يبرود يدرك في طريق جيدة بعد ٩ كم طريق حمص دمشق عند مدخل النبك.

بعلبك وضواحيها

بالقطار من بيروت ٩١,٨٠ كم في نحو ٣,٥ ساعة، من طرابلس عن طريق حمص ١٦٠ كم في ٥,٤٥ ساعة، من دمشق ١٠٧,٣ كم في ٣,٢٥ ساعة.

بطريق السيارات من بيروت ٩٠ كم من طرابلس عن طريق الأرز ـ من دمشق عن طريق شتورا ١١١,٥ كم ـ عن طريق سرغايا نحو ٩٢.

بعلبك ـ بلدة سكانها ٥٠٠٠ وهم ٢٣٥٠ شيعة، ١٧٥٠ مسلمون سنية ٦٠٠ روم ملكيين ٢٥٠ موارنة ١٠٠ أرثوذكس مركز قضاء بعلبك، تقع في طرق سهل البقاع البعلبكي أو الشمالي الخصب، وسط واحة خاصة بها، علوها ١١٥٠ متراً، وهذا

العلو الذي تتمتع به يهيء لها درجة لطيفة تجعلها مقصد المصيفين الهاربين من رطوبة الساحل والحر الجاف جداً في الداخل.

وفيها محطة قطار غربي البلدة وعدة فنادق من الدرجة الثانية والثالثة ودور حديثة جميلة وكنائس وجوامع.

مر ابن بطوطة ببعلبك سنة ٧٢٦ فوصفها في رحلته قائلاً: وهي حسنة قديمة من أطيب مدن الشام، تحدق بها البساتين الشريفة والجنات المنيعة وتخترق أرضها الأنهار الجارية وتضاهي دمشق في خيراتها المتناهية، وبها من حب الملوك ما ليس في سواها وبها يصنع الدبس المنسوب إليها، وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب، ولهم تربة يضعونها فيه فيجمد وتكسر القلة التي يكون بها فيبقى قطعة واحدة وتصنع منه الحلواء ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمونها حلواء بالملبن، ويسمونها أيضاً بجلد الفرس وهي كثيرة الألبان وتجلب منها إلى دمشق، وبينهما مسيرة يوم للمجد ويصنع فيها الثياب المنسوبة إليها من احرام وغيره، ويصنع بها أواني الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد، وهم يسمون الصحاف بالدسوت وربما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفة أخرى تسع في جوفها وأخرى في جوفها إلى أن يبلغوا العشرة يخيل لرائيها أنها صحفة واحدة وكذلك يعملون بالملاعق يصنعون منها عشرة واحدة، في جوف واحد ويصنعون لها غشاء من جلد ويمسكها الرجل في حزامه، وإذا حضر طعاماً مع أصحابه أخرج ذلك فيظن رائيه أنها ملعقة واحدة ثم يخرج من جوفها تسعة (هذا الذي كان لم يبق منه أثر الآن).

التاريخ قلما يعرف شيئاً كافياً عن بعلبك في العهود التي سبقت العهد السلوقي إلا أن اسم هذه البلدة يدل على أنها بنيت في العهد الفينيقي باسم (باق آل بقا) أي سيد البقاع ويجب دحض النظرية التي تجعلها إحدى مدن الملك سليمان (سفر الملوك ١٨٢٩)، وبعد فتوح الإسكندر سكن اليونان في هذه البلاد فسموا هذه المدينة باسم هليوبوليس (مدينة الشمس)، وقد طبق هؤلاء القادمون الجدد اسم بعل السامي على اسم معبودهم الشمس. وفي زمن اغطوس قيصر صارت بعلبك كبيروت مستعمرة رومانية وصارت عنايتها مرغوبة رغبة عظيمة. ومن ثم صار الإله الشمس يدعى (جوبيتر البعلبكي) وصار يعبد حتى في بلاد الغرب، وشيد القياصرة الرومان له في

بعلبك هيكلاً عظيماً مكان معبد قديم كان متواضعاً جداً ، ودامت الإشارة من عهد انطونين التقي (١٣٨ ـ ١٥١ ب.م) إلى عهد كاركلا (٢١١ ـ ٢١٧) وأقيمت لجوبيتر ولغيره من المعبودات التي رافقته هياكل، لاتزال خرائبها الكئيبة شاهدة بعظمة وفخامة المشاريع التي اتخذت.

أما عهد النصرانية الذي وافى بعد فهو فضلاً عن أنه أبعد الأمن والسلام، عهد الخراب والدمار، فقسطنطين (٣٢٤ ـ ٣٣٧) ألغى عبادة فينوس. وتئودوس (٣٧٠ ـ ٣٩٥) هدم قسماً من الباحة الكبرى ومن واجهة هيكل جوبيتر لكي يبني فيه كنيسة. وجاءت الزلازل تزيد الدمار أيضاً. ثم في سنة ٦٣٤ دخلت بعلبك في حوزة المسلمين القادمين بقيادة أبو عبيدة، وفي القرن ٧ هـ/١٣م قلب المسلمون هياكل بعلبك ومبانيها إلى قلعة حصينة (فيها الأسور والشرفات والمرامى والأبواب السرحية وغيرها)، وكان تاريخ بعلبك حتى الفتح العثماني سنة ١٥١٧/٩٢٢ مفرغة من الحروب والفتن زادها الصليبيون في مهاجماتهم ١١٧٦/٥٧١ بقيادة ريموند حاكم طرابلس فأوجبت خراب مبانيها الأثرية وفي سنة ١٦٦٤/١٠٧٥ ثم في سنة ١٧٥٩/١١٧٣ حدثت زلازل عظيمة دكت بعلبك وهياكلها دكاً هائلاً وفي سنة ١٧٥١/١١٦٥ جاءها السائح الإنكليزي وشاهد تسعة أعمدة من هيكل جوبيتر، وفي سنة ١١٩٩ هـ/١٧٨٤ لم يشاهد فولناي الفرنسي أكثر من ستة، هي الباقة حتى الآن.

آلهة بعلبك . قد أجمعت الآراء في زماننا على أن الآلهة التي عبدت في بعلبك كانت تؤلف ما اتفق على تسميته بالثالوث البعلبكي (جوبيتر وفينوس ومركور) إلا أن الصعوبة تبدو في معرفة أي المعابد الجليلة كانت مخصصة لهم، بيد أنه يظهر أن الهيكل الكبير كان مخصصاً لجوبيتر، الباقي منه ستة أعمدة، وأن الهيكل المنسوب لدى العموم خطأ إلى باخوس كان مخصصاً بفينوس. أما المعبد الذي كان مخصصاً بمركور فلعله هو الذي اكتشف وسط البساتين خلال التنقيب الحديث الذي جرى في ١٩٢٧/١٣٤٥ ـ ١٩٢٨/١٣٤٦ وثمة سؤال.. مقام أي المعبودات المحلية قامت هذه الآلهة؟ الجواب، أن جوبيتر خلف حدد ، وفينوس خلفت عشتروت، أما مركور فإنه لم يكن مما جلبه الرومان معهم، ربما كان خليفة الإله السامي

المسمى سيميوس.

استعمال الوقت ـ لابد لزيارة بعلبك من يوم على الأقل. ففي الصباح تزار الهياكل، والهيكل الصغير المنسوب بفينوس والجامع الكبير ـ وبعد الظهر، ورأس العين، وعند الغروب الهياكل الظاهرة في الركن الجنوبي الغربي من الآكروبول[٢] وإذا كان لدى الزائر وقت أفسح يمكن أن يزور البقعة التي فيها الدياييس، والأخرى التي جرى فيها التنقيب سنة ٩٢٧ ـ ٩٢٨ وأن يصعد على أكمة الشيخ عبد الله، ومن استطاع أن يقضي ليلة في بعلبك عليه أن لا يفوتها، لأن ألوان وقت الغروب والشفق ومشاهدهما، وأشباح الهياكل التي تتدرج بالقناعة هي ذات أثر لا يمكن نسيانه، أما طلوع الشمس فذو أثر أروع وأبدع بحكم الألوان التي يظهرها.

(اجرة الدخول ليرة سورية عن الشخص تدفع عند الممر المغطى الساباط) إن مجموع الهياكل الكبيرة يؤلف ما يدعى أيضاً بعض الأحيان بالأكروبول (القلعة) وهو قائم في غربي البلدة ووسط البساتين. وهناك كتلة من المباني الضخمة المتراكمة: منها هيكلان وباحتان يتقدمهما مدخل فخم، وسور قد بنى العرب فوقه حصوناً وصياصي، وخندق يكاد يكون هاوية هائلة قد ملئت لحسن الحظ بالردم الذي ألقته فيها البعثة الألمانية سنة ١٩٠٠ ـ ١٩٠٤ بعد أن أتقنت التنقيب والكشف.

فالمداخل ـ كانت بقرب درج عظيم عرضه ٥٠ متراً يفضي إلى رواق يحدق به برجان ويزينه في جبهته صف من الأعمدة (لا تزال قواعد ١٢ ظاهرة في المكان)، وثلاثة من هذه الأعمدة تحمل كتابة لاتينية فيها دعاء بسلامة كاراكلا (٢١١ ـ ٢١٧).

وقد كان لأورليوس أنطوان لونجين شرف طلي التيجان المعدنية للأعمدة المذكورة بالذهب وعلى نفقته الذي فيه، وزيادة في تمجيد إله بعلبك زخرفوا زخرفة ثمينة كل جدران الرواق الذي فيه ثلاثة أبواب كبيرة (الفجوة الوسطى أكبر من

---

(٢) الاكروبول، هو أعلى مكان في المدن اليونانية القديمة والأكروبول في آثينة كان اسم قلعتها المبنية فوق صخرة تعلو عنها نحو ١٥٠ قدماً، وكان يوصل إليها من مداخل فخمة وكانت قمة الصخرة تحتوي على هياكل عظيمة أخصها البارثنون والاركثيون، وتماثيل (آثينا بروماخوس.. الخ)

الجانبين) مسدودة في وقتنا الحاضر. ولما شرع العرب بتحويل الهيكل إلى قلعة محوا الزخارف المذكورة كلها، ومن برجي المداخل اللذين كانا يحدقان بالدرج قد سقط منهما بالمرة، أما الشمالي فلا يزال نوعاً، قائماً، وهو مزين في خارجه باروقة أمامية كورنثية، ويمكن النفوذ إليه من الرواق نفسه من باب مقنطر ومحاط بعضائد ذات بطن كبير. وثمة من مكان إلى آخر بابان مسدودان في العهد الروماني، وفي داخل البرج فقد بلاط البهو، والعقد الذي كان يحمل البهو قد سقط. وزخرف الجدار مع بيوت القربان المقدس المتراكبة ذات الفرونتونات المثلثية أو المدورة - كلها من نفس النموذج الذي في باحة المذبح. وكثير من تفاصيل الزخرف يدل على أن العمل لم ينتهِ وقتئذ.

وكان يدخل قبلاً إلى الباحة ذات الأضلاع السداسية (المسدسة الأضلاع) من ثلاثة أبواب بقي منها الوسطاني الكبير كان العرب سدوه ثم فتحه الألمان ومما يلفت النظر في الباحة هو العتبة البارزة كثيراً التي تؤلف حد الحرم المقدس.

وهذه الباحة الأولى ذات عمق يقدر بنحو ٦٠م وكانت محاطة برواق ذي أعمدة (أحد الأسس لا يزال في موقعه عند الركن الجنوبي الغربي لا تزال مداميكه السفلى ذات الكورنيش والأسس لا تزال رسومها بارزة للعيان، مع درجاتها غير الكاملة أو المشوهة، وكان هناك أربع ردهات للاستقبال ممتدة من الشمال إلى الجنوب تنفتح على الرواق المذكور وأمام كل منها أربعة أعمدة - وكانت هذه الردهات مزخرفة بطبقتين من الكوى ذات الفرونتونات المثلثية أو المدورة، قد خربت بالمرة، وكان بينها صياصي بشكل زوايا، استعملها العرب وبنوا فيها كما بنوا في ردهتي الاستقبال الأوليين مجموعة من الأقبية المخبأة المحصنة معقودة بعقود بيضوية.

وفي شمالي الباحة المسدسة الأضلاع وقرب الباب الأيمن الذي ينفتح نحو باحة المذبح يوجد الرسم البارز المشهور لجوبيتر البعلبكي الذي عثر عليه في نبع اللجوج (على بعد ٨ كم من بعلبك (سيأتي ذكره).

الواجهة الأصلية: الإله لابس درعاً قرميدياً، وعلى رأسه قلنسوة يحمل في إحدى يديه سوطاً، وفي الأخرى صاعقة. وعلى رجليه هرمز (غمد يحمل رأس مركور) بين ثورين.

الواجهة الجانبية : الثور والصاعقة وكان الثور هو الحيوان المنسوب إلى الإله السوري حدد، (رب العواصف والصواعق) أما السوط فكان دون ريب رمزاً لأميرة الشمس.

ويمكن الدخول من الباحة المسدسة الأضلاع إلى باحة المذبح من أبواب ثلاثة لم يبق منها سالماً إلا الباب الأيمن، وهذا الطراز من الباحات المتوالية (أي التي ليست على شكل الدوائر المتحدة المركز كما هو الحال في هيكل جوبيتر الدمشقي، يعلل باتجاه الفكر السامي لجعل الوصول إلى قدس الأقداس على مراحل. وهذه الباحة الثانية تذرع ١٣٥ م طول في ١١٣ م عرض. وقد كانت مزخرفة زخرفة بالغة في جهاتها الثلاث (ماعدا الغربية) بردهات استقبال جعلت مستطيلة ونصف مدورة بالتتابع (٤ نصف مدورة و ٨ ذات زوايا قائمة ومستطيلة) مع صفين مزدوجين من الكوى التي فوقها فرونتونات، ومع جبهة مزينة بصف أعمدة (٢ للردهة النصف مدورة و ٤ أو ٦ للبقية)، وبين ردهات الاستقبال قد ثقب في جدران الفواصل كوى لوضع التماثيل، وأمام هذه الجبهة وعلى بعد ثمانية أمتار يمتد على الجهات الثلاث صف من الأعمدة (أحد هذه الأعمدة، من الحجر الغرانيتي الوردي اللون المجلوب من أصوان، وطوله ١٧.٨ أمتار، وهو لا يزال مرئياً في الركن الجنوبي الغربي من الباحة وتجاه الردهة الأخيرة). وكل هذه الأروقة والردهات كانت مغطاة بسقف خشبي ليحفظ من المطر والشمس من كانوا يجتمعون تحتها ليتداولوا أحاديث الأعمال أو ليأكلوا الضحايا المذبوحة.

وكان يوجد في هذه الباحة حوضان أحدهما في الشمال والثاني في الجنوب يحيطان بالمذبح، فالحوض الشمالي (٢٠ م × ٧.٥م) هو أكثرهما سلامة ونفعاً، ورغم التشويه لا يزال يظهر في هذا الحوض قطع رسوم مزخرفة زخرفاً دقيقاً جداً (كصور تريتون ونرئيديس ومدوز يبدون راكبي التنانين) تتعاقب مع أوضاع أكثر اختصاراً مستعارة من الفن القبوري (كالجن وحملة العقود.. الخ) والحوض الجنوبي ذو زخرف مختلف عن الأول وأبسط وقد خرب للأسف قسم منه واختفى تحت بناء عربي.

وهناك بازيليكا نصرانية ربما شيدها تئوديوس قد هدمت كل الوضع المنظري للباحة الكبرى. وهي التي تلحظ حينما يخرج الزائر من الباحة المسدسة الأضلاع، وبناؤها ليس متجانساً ففي بادىء الأمر معبد ينفتح مدخله نحو الشرق، له درج عظيم لا تزال أنقاضه بادية، وله خورس متجه نحو الغرب، ومن بعد زمن غيروا اتجاه الكنيسة، فبنوا في الشرق أمام البوابة القديمة حنية جديدة، وجعلوا في مدخل المعبد باباً في الغرب وآخر في الخورس القديم.

وفي الطابق الأسفل من البازيليكا وبين الروم وجدوا المذبح القديم لضحايا الهيكل الوثني. ويظهر أن النصارى حاولوا أن يهدموه دون جدوى تامة، ولا يزال يلحظ فيه الدرجات التي كان يهبط منها الكريان لذبح الضحايا.

هيكل جوبيتر البعلبكي، مبني فوق طبقة سفلى كانوا يصلون إليها من مدرج عظيم البناء لا يزال بالإمكان رؤية كل سعته رغم الحنية البيزنطية التي أقيمت فوقه، وعلو هذا الهيكل ٧٠.٥٠ هو بذلك يشرف على جميع المباني التي حوله، كما أنه أعلى من أرض الحدائق المجاورة بـ ١٣ متراً، وهو يشغل مساحة طولها ٨٧.٨٥ م وعرضها ٤٧.٧٠م وكان يتألف من سللا حفظوا فيها تمثال الإله، وأحاطوها برواق جد فخم: عشرة أعمدة في الجبهة و ١٩ عاموداً في الجهات الطويلة، فالمجموع ٥٤ عموداً، ولم يبق الآن سوى ستة أعمدة للرواق الأمامي الجنوبي.

بلغ علوها مع القاعدة والتاج عشرين متراً وقطرها ٢.٢٠ متراً (والبدن مؤلف من ثلاث اسطوانات وهذه الأعمدة تحمل عمامة ذرعها أكثر من خمسة أمتار. وفي هذه العمامة ارشيتراف طنف ثم إفريز مزخرف بـ الثيران والأسود مرتبطة على شكل عقد زهري صغير، وفيه كورنيش قد نقش نقشاً بديعاً جداً على حروف السين الإفرنجية المتداخلة وعلى شكل الآلي والبيض، وفيه زوافر صغيرة ذات تقويس حلزوني، وزخارف على شكل الأسنان، والأرضي شوكي ورؤوس الأسود وأفواه الوحوش الضارية، وبقية مكسرة من هذا الكورنيش توجد في الجنوب الشرقي بين الهيكلين، وهي جديرة بالفحص وحالة صف الأعمدة الكبيرة تستدعي الخوف والحذر، ويكفي أن يرى الزائر في الداخل العمود الثالث اعتباراً من اليسار.

وإذا سار الزائر في محاذاة السور الغربي يرى أساسي أعمدة الرواق الأمامي الغربي للهيكل وهما لا يزالان في مكانهما فيصل بذلك في الركن الجنوبي الغربي إلى باب صغير ينفتح على سطح صغير يطل منه على منظر جد رائع نحو بساتين بعلبك وسهل البقاع وسلسلة لبنان وفيه يحيط ويفهم كل أهمية العروق والمداميك السفلى التي كانت تحمل صف الأعمدة والجدار الشاهق الضخم الذي كان تجاه سطح الهيكل.

وإذا عاد إلى الوراء وعاد للقاء صف الأعمدة الكبيرة تاركاً إياه على اليمين يجد مجازاً ذا انحدار صعب يفضي إلى حضيض العروق والمداميك السفلى الشرقية، فيترك هذا المجاز سائراً فوق رضام ضخمة غاية في الضخامة كانت تحد السطح في شرقه وهذه الرضام هائلة، ومعدل قياسها ٩.٥ م طولاً و ٤ م علواً و ٣م ثخناً وقد جمع بعضها إلى بعض في غاية من الضبط وكان في خارجها صفوف من الثقوب، عملت في مقالعها تمهيداً لأعمال آلات النحت، وفي الشرق وخارج السطح كثير من تيجان الأعمدة وعتبة عليها حروف ترمز لاسم المسيح، نزعت من بازيليكا تئودسيوس.

هيكل باخوس - هذا الهيكل ما برح سالماً في النسبة، وهو يعطي فكرة حسنة عما كانت عليه معابد بعلبك وهو أقل ارتفاعا من هيكل جوبيتر ومستقل عنه تماماً.

ومما لاريب فيه أنه كان أمامه باحة لها مذبح وكان يوصل إليه من الشرق بسلم فخم البنيان ذي ٣٣ درجة مقطوع ثلاث مصاطب. وكان هذا هيكلاً ذا خطوط منحنية طوله ٣٣م وعرضه ٣٦م) وله رواق يحيط بالسيللا (٨ أعمدة في الجبهة و ١٥ على الجهة الطويلة) وقسم متقدم يدعى برونائوس مزين بأعمدة مقورة (اثنان من هذه الأعمدة مازالا باقيين على سلامتهما وهما على يسار البرونائوس) ويبلغ علو الأعمدة بما فيها القواعد والتيجان نحو ١٩ متراً وهي تحمل آنتا بلحانا كثير الزخرف قد زخرف إفريز هذا أيضاً بيروتوم الأسود والثيران متصلاً بجدار السيللا ببلاطات جد ضخمة منحنية قليلاً من الخارج إلى الداخل، وهذه البلاطات تؤلف سقفاً ذا قسائم كثيرة النقوش البديعة.

وإذا زار السائح هذا الهيكل بعد زيارته هيكل جوبيتر يصل إلى طبقته السفلى فيجدها مبنية بأحجار غاية في جودة النحت وإتقانه، وإذا صعد سلماً ذا بضع درجات يجد نفسه وسط رواقه الأمامي، وهو أكثر الأروقة سلامة، وله تسعة أعمدة لا تزال واقفة هي وسقفه ذو القسائم.

يرى فيه تماثيل عدة آلهة منها مارس المدرع (ثمة فراغ بحكم سقوط إحدى القسائم) نصرة مجنحة - ديانا تأخذ عن يمينها سهماً من كتابتها مع قرن البركة - ولقان ومطرقته باخوس - سرس آلهة الزراعة حاملة حزمة سنابل، ومما يلفت النظر قواعد الأعمدة التي جوفها أناس مخربون بقصد التحري على قطع البرونز التي كانت تستعمل للربط.

أما الرواق الأمامي فهو على خلاف الأول ليس له سوى ثلاثة أعمدة سالمة. خمسة أعمدة أخرى قد انفك بعضها عن بعض، لها أطوال مختلفة، والاسطوانات قد سقطت إلى الخارج فوق بناء عربي، والزائر يتخطى أو يدور حول قسائم سقف مقطعة الأجزاء مطروحة على الأرض ويصل إلى الركن الجنوبي الشرقي، وفي هذا الركن يتمكن من أن يلقى بنظرة واحدة على كل المباني العربية (المسجد ومباني التحصين كالأبراج والمرامي والأبواب السرية) والرواق E قد تهدم خاصة خلال زلزلة سنة ١١٧٣هـ /١١٥٩م وقد بقي منه في المكان أربعة أعمدة، وعمود آخر منه قد استند على جدار السيللا وحفظت قطع الحديد الروابط ارتباط اسطوانات بدنه بعضها ببعض وقواعد الأعمدة الزائلة لا تزال سالمة.

وتمتد في طول الجدار قطع ساقطة من قسائم السقف المنقوش منها غاينمد الأمير الذي حمله نسر، وهو أحد أمراء اليونان من تروا - بعلبك على جانبيها تمثالا نصر يحملون قناعاً - آلهة حامية بقعة مبنية على ضفاف نهر وفي أعلى الأعمدة السالمة يظهر في القسائم تماثيل الآلهتين الخزفيتين مدوز وسيلفان.

وهكذا يصل الزائر إلى القسم المتقدم من الهيكل ويواجه بوابة عظيمة البنيان تحضن السيللا، وهي من أعظم وأفخم بوابات العالم (علو ١٣ م وعرض ٧.٥) لها إطارات في الجهات الثلاث منقوشة نقوشاً ذات رقة خارقة للعادة منها حزم سنابل وخشخاش، غصون من شجر العنب ونبات المدادة المتشابكة، وتحتها موضوعات

تاريخية قد قطعت أجزاؤها ويا للأسف. وعلى اليسار صبي ترضعه جنية وفي أعلاها الإله يان والآلهات والراهبات اللواتي كن يرقصن ويحتفلن بإكبار باخوس وأعياده. وعلى اليمين آمورس قطافو العنب وسقف العتبة المؤلفة من ثلاث قطع رخام مزخرف بزخارف لم تفهم بعد، منها نسر يقبض بين مخالبه على غصن زيتون في رأسه جناحان وحوله تنينان متداخلان ويقبض في منقاره على أطراف عقد طويل من الزهر يحملها جنيان (وفي حصن سليمان في جبال النصيرية يوجد لهذا النسر شبه) وعلى يمين البوابة وفوق الباب الصغير الذي يفضي إلى الدرج الموصل إلى أعلى الجدار، يوجد إفريز، ذو طراز كثير الاختلاف، يمثل موكباً للضحايا.

والسللا تذرع ٢٧ م في ٥٠ م كانت مزينة زينة بالغة بالأعمدة المقورة وبصفين من بيوت القربان المقدس ذوات فرونتونات نصف دائرية ومثلثية. ومما كان فيها وضاع أعمدة صغيرة وتماثيل كانت فيما يظن على غاية من جمال الزينة، كانت موضوعة في جوف السيللا وأمامها درج ذو منحدرين. وكان فيها أيضاً نقوش بارزة مشوهة تشويهاً زائداً يحول دون الإحاطة بمغازها، بيد أنه يظهر منها ثلاثة رقاصين وكان المزين بأعمدة نصفية تشبه التي في الجدران الجانبية. وكان هناك فجوة كبيرة.

وسكانية تمكن المؤمنين من رؤية تمثال الإله، وكانت هذه الفجوة موضوعة تحت سرداق، وقد وجدوا أحد قواعد الأعمدة الصغيرة التي كانت تحت هذا السرداق، والسرداق كان يركب على أربع ركائز مستندة ظهورها إلى الجدار الأخير. وكان الطلسم الأسفل من السرداق منقوشاً ولكن موضوعات النقوش مشوهة جداً، ويظن أنها تمثل على اليسار باخوس وآريان وموكباً، وعلى اليمين باخوس قاعداً على فهد ومحاطاً. وكانت تحت كهف مقبري ينفذ إليه من درج ينفتح في الشمال.

وإذا عاد الزائر نحو المدخل يرى الدعامتين المربعتين اللتين تحيط بالبوابة وتحتوي على سلالم دوارة، وقد خرب نصف الدعامة اليمنى وسلمها أصبح مكشوفاً أما الدعامة اليسرى فلم تمس بسوء وهي مزينة بورق الأرضي شوكي من قاعدتها إلى تاجها. ومن هذه النقطة يصعد الزائر ليصل إلى القسم الطافح من الرواق الأمامي وفي أعلى البوابة يكون المشهد جميلاً جداً نحو سيللا الهيكل.

وفي خارج القسم المتقدم من الهيكل وفي شرقه قد بنى العرب مباني فوق السلم القديم للهيكل، ويمكن أيضاً الصعود إلى قمة البرج وإلى السطوح، التي فيها مناظر ممتدة جميلة نحو البقاع ولبنان الشرقي، وكما قلنا سابقاً نقول إن هيكل بعلبك الثاني - رغم زية ديونيسية (باخورية)، ينبغي أن يكون مكرساً إلى فنوس أستراكايتس وهي الآلهة لجوبيتر- هاداو.

الأقبية وجدار السور - يخرج الزائر من الهياكل ماراً تحت نفق عظيم معقود (ذرعه ١٢٠م في ٥٠م) وهو يعد من الأقسام السفلية المخصصة لحمل الباحة الكبرى للمذبح وهناك سردابان متوازيان متصلان اتصالاً عمودياً بسرداب ثالث، وتؤلف هذه السراديب الثلاثة دهاليز عظيمة تمتد في محاذاة أقبية وأبهاء، ولعلها مخازن أم ملاجىء للحجاج.

وقبل الخروج من السرداب الجنوبي، وهو في قرب لوج الحارس يزار أحد هذه الابهاء التي زينتها تفاجئك مفاجأة، ويوصل إليها من درج ومن ممر ضيق ينفتح نحو بيت قربان مقدس قديم وسقف البهو منقوش نقشاً بديعاً بالقاسم المسدسة الأضلاع مع مدايونات وسماوات، والواجهة الداخلية الشمالية (التي فيها المدخل الحالي) مزينة ببيوت قربان مقدس ذات فرونتونات مثلثية أو مدورة، منفصلة بركائز كورنثية، وبالنظر إلى زينته المعتنى بها جداً يظهر أن هذا البهو كان مخصصاً للحفلات والمآدب الرسمية أو مخصصاً إلى كبار الرؤساء من الاكليروس الروماني.

وكان هيكل جوبيتر مبنياً - كما رأينا - فوق طبقة سفلية واسعة أوجبت رفع جدار سور عظيم هائل، ويمكن مشاهدة هذا السور والإحاطة به بسهولة من خارج الخرائب إلى مشهد بقايا الجدار الغربي، وثمة مجاز صخري يسير بحذاء القسم المتقدم الجنوبي من هيكل باخوس، ويلف حول برج زاوية، إن هذا المجاز يفضي إلى أسفل السور المذكور المشهور بمجموع المباني المنسوبة إليه، وفي هذا السور أساس مؤلف من أحجار وسط في ضخامتها، وصف من الرخام التي ينبغي أن تؤلف بروفيل الأساس (والمتوسطة من هذه الرخامات تذرع ٩.٥ × ٣×٤) وأخيراً الأحجار الضخمة الثلاثة التي كانت فيما يظهر تحمل بروفيل رأس السور، وذرعها من اليسار إلى

اليمين ١٩.١٠م و ١٩.٣٠م و ١٩.٥٦ طولاً في ٤.٥٠ م علواً و ٣.٧٥ عرضاً (وكل رخامة تزن نحو ٧٥٠ ألف كيلو غرام).

ويظهر أن التصميم الأولي كان يرمي إلى بناء كل جدار السور من هذه الأحجار الهائلة، ويظهر أن عظمة المشروع والمصاعب التي نجمت عن تنفيذه اضطرتهم إلى العدول عنه، وإلى أن يصغروا ذلك المخطط الهائل قليلاً. (ويرى في المقلع حتى الآن حجر اسمه (حجر الحبلى) نحتوه ولم ينقلوه.

وعلى بعد ٢٠٠ متر من الآكروبول هناك هيكل صغير باسم فينوس. إن حالته الخربة (خرابة) وأطلاله التي لا تزال قائمة قد شجعت على ترميم هذه السيللا الكنيسة التي تعد عجيبة صغيرة لحسن الذوق ولدقة العمل، وفي هذا الهيكل مكان خاص للعظماء وكبار الرهبان. وهو يتجه نحو الشمال ويتقدمه سلم ذو ثلاث درجات وثمة واجهة مستقيمة الخطوط مع صفين مزدوجين من الأعمدة.

والسيللا المدورة تنفتح ببوابة كان لها علو قدره ٦م وعرض ٣.٥م وكانت السيللا مزدانة الداخل بيوت القربان المقدس موضوع بعضها فوق بعض والمغطاة بقية وفي الخارج، كان لها صف أعمدة كورنثية تستند على مقعر وفي جدار السيللا نفسه كان يوجد ركائز تتجاوب مع الأعمدة وتحدق بكوى فرونتونات مدورة، كانت فيما مضى مزدانة بتماثيل وفي أعلى الجدار إفريز مؤلف من أكاليل تتدلى من تيجان الركائز ولا يمكن إدراك هذه التزيينات إلا إذا نظر إلى الهيكل من ورائه، ولهذا يجب الالتفاف حول كل الدور التي تستر البناء والسير في الطريق الذي يمر من قرب الجامع الكبير، وفي عهد النصرانية كان هذا الهيكل الصغير مخصصاً للقديس بازيا.

وفي شرقي المداخل يوجد الجامع الكبير وهو ذو بناء ضخم، أصبح الآن خراباً، كان مزينا بثلاثة صفوف أعمدة جلبت قطعها من سور الهياكل المجاورة، ويدرك الناظر بسهولة أن أساطين الأعمدة قد ركب عليها تيجان غير متشابهة، وفي الركن الشمالي الغربي من باحة تقع على الجانب الشمالي للجامع ترى خرائب مئذنة كبيرة، مربعة في قاعدتها ومثمنة الأضلاع في أعلاها.

وفي الشرق الجنوبي من بعلبك وعلى بعد كيلو متر منها مكان في حضيض الجبل الشرقي اسمه (رأس العين) فيه فندق حسن، وينبوع غزير رائق ـ ينبجس من الأرض ويؤلف شبه بحيرة صغيرة وهو مكان نزه، نضر، مظلل بأشجار الصفصاف، يقصده المصطافون بكثرة وفيه مسجدان متهدمان بني الصغير منهما الملك الظاهر بيبرس والثاني ابنه الملك السعيد بركة خان.

ولابد لزائر بعلبك أن يقصد المقالع وهي في سفح أكمة الشيخ عبد الله وهو صاحب الضريح الذي يرى في أعلى القمة، فيجد فيها رضماً من الصخر منحوتة نحتاً تاماً يدعوه الأهلون (حجر الحبلى)، وقد ظل ماكثاً في أرضه التي اقتلع منها لا ريب في أنه كان مخصصاً لسور الهيكل الكبير، وهو يزيد في الحجم عن الرخامة الشهيرة وذرع هذا الحجر في الطول ٢١.٥م وفي العلو ٤.٣٠م وفي العرض ٤.٨٠ ويقدر وزنه بألفي طون وهو دون ريب أعظم أحجار الدنيا.

وقد قامت دائرة الآثار القديمة في المفوضية العليا بحفريات في سني ١٣٤٥/١٩٢٧ و ١٣٤٦/١٩٢٨ في الجنوب الغربي من القلعة حول الفندق الكبير الجديد فكشفت خطوط بناء عظيم كان مجهولاً حتى الآن، فأظهرت عموداً عظيماً يشبه بضخامته وطوله تلك التي في صف الأعمدة الكبير. وهذا العمود يعود إلى بناء لعله هيكل، ولعل هذا الهيكل هو الخاص بمركور الإله الثالث لبعلبك.

وقبل الوصول إلى بعلبك ببضع دقائق على يسار طريق رياق يرى السائر بناء مقبرياً صغيراً يدعى (قبة درويس) تشبه لقرية قريبة بهذا الاسم وهي مثمنة الاضلاع، بناها العرب في سنة ٦٤١هـ /١٢٤٣م واستعملوا لأجلها ستة أعمدة من الغرانيت الوردي اللون دون قواعد ولا تيجان، وركبوا فوقها قبة أصبحت الآن ساقطة وهناك ناووس قديم كانوا اتخذوه محراباً، تراه ملقى على الأرض في جوارها.

أما الأضرحة في بعلبك فكثيرة، ولاسيما تلك التي من العهد الروماني، وأخص المقابر هي التي في الشمال الشرقي من القلعة وفي خارج الأسوار. وفي سفح أكمة الشيخ عبد الله قد حفروا كهوفاً مقبرية، ودور بعلبك الحديثة قد شيد أكثرها فوق أقبية حقيقية من التي كانت تحفظ فيها الموتى ـ إلا أن كل هذه قد نبشت منذ أحقاب بعيدة ولم يبق فيها نفع أثري ذو بال.

أما المسرح فلا يذكر إلا من قبيل التذكار، لأنه الآن قد انطمر قرب (فندق تدمر) يلحظ أمام هذا الفندق بقايا جدار ذي أحجار ضخمة، وقد أجروا هنا حفريات إلى عمق مترين، فعثروا على بوابة ذات عتبة منقوشة. وجدار مكان التمثيل الذي كان يمتد طوله - فيما زعموا - إلى فندق فرانسا كان مزخرفاً بنقوش سالمة كل السلامة، لكن اليوم قد انطمرت تحت أسس دار عارف أفندي.

من بعلبك إلى نحلة واللبوة (١ عة و ١٠ و ٥ عة و ٣٠ دق) إلى الشمال والشمال الشرقي لحب جيد يتجه اللحب نحو الشرق ويحاذي سفح جبل لبنان الشرقي.

في الساعة وعشرة دقائق - نحلة، قرية صغيرة قائمة فوق واد سحيق مزدان بالبساتين النضرة، يجري في قعره مسيل سريع تجاج فجاج وهو أحد روافد الليطاني وفي وسط القرية، أطلال هيكل صغير لم يبق منه سوى دكة التي تشبه دكة الهيكل الصغير في بعلبك وبعض الأثر في جدرانه الطبقة السفلى ويلوح أن هذا المعبد كان مؤلفاً من قسمين باحة سماوية مكشوفة وردهة كبيرة مسقوفة، ولا يزال يرى في الجدار ثقوب لوضع أرض الشقف الخشبية، وقد بنى الأهلون كثيراً من الدور المكتظة حول هذا الهيكل ويكادون يغطونه بالكلية، وفي شرقي القرية مقبرة رومانية وبيزنطية.

على بعد ٢ كم في الجنوب الشرقي نبع عين اللجوج، ذات الماء الغزير النقي البارد، وكانت تؤخذ مياه هذه العين بقناتين إلى القسم العالي من بعلبك وإلى الهياكل - أما وقد خربت هذه الأقنية صارت المياه تضيع في الحقول، ولا يزال يرى آثار الأقنية الرومانية هنا وهنالك، وهي مبنية بحجارة مربعة مطلية بالشيد ومسقوفة بألواح حجرية بحيث يكاد الرجل يمشي في القناة مستوياً.

بعد عبور المسيل المذكور من فوق جسر حجري يتجه السائر نحو الشمال الشرقي محاذياً سطح انصباب أكمة - في الساعة ٢ والدقيقة ٣٠ يونين - قرية، سكانها ١٢٠٠ أكثرهم شيعة، قائمة في مدخل واد سحيق يروى بجدول صغير ويسقي بساتيناً كثيرة نضرة، ثم يصعد الدرب ثم يهبط حسب التلاع العديدة - في الساعة ٣ ونصف نبع (اهلا)، الذي ينبجس من تحت صخرة ويروي ضيعة اسمها رسم الحد.

ثم يصعد المجاز صعوداً خفيفاً خلال ٥ كم ويوصل (في الساعة ٤ وثلث) إلى نشر فيه منظر جميل، وفي هذا النشر انقسام المياه بين نهري العاصي والليطاني. ومن ثم يشرع بالهبوط - في الساعة ٥,٣٠ اللبوة حيث يلاقي طريق بعلبك حمص واللبوة أجمل قرى بعلبك ماء وأكثرها خيراً وأشجاراً وأنهاراً، ومياهها تنبثق من نبع من بعلبك إلى الأرز لايزال هذا وهو يمر من بحيرة اليمونة وحدث الجبة، على أن مسافة ٢٥كم منه صالحة للسيارات حتى عيناتا، ومن ثم درب دواب تستغرق نحو ٣,٣٠ ساعة.

بعد بعلبك يسلك طريق حمص - في الكم ٣,٥ يترك الطريق المذكور على اليمين ويسلك طريقاً متجهاً نحو الشمال الغربي بقطع السكة الحديدية من ممر في مستوى الأرض.

في الكم ٥ إيمات، ضيعة حقيرة، سكانها ٥٠٠ شيعة و ٢٠٠ موارنة بعدها بمسافة وعلى اليمين يرى السائر عموداً منفرداً وسط السهل وهو ذو قاعدة وبدون تاج علوه نحو ٢٠ متراً يصل إلى القديسة هيلانة.

ويزعمون أنها - أقامت هناك مكاناً من أماكن بريدها الكثر. إلا أن الظن الأصح يجعله بناء مقرياً.

وبعد أن يترك على اليسار أكمة شيلفا التي عليها طلل روماني اسمه قصر البنات يصل إلى منتهى السهل في الكم ١٠ دير الاحمر، قرية سكانها ١١٤٧ موارنة، وهي قاعدة ناحية، فيها كنيستان ومدرسة، إلا أن ماءها رديء، وقد نسب الاحمرار إلى اسم هذه القرية من وفرة الحجارة الحمراء التي ترى فيها.

بعد الخروج من دير الأحمر، ينقلب الطريق إلى مجاز ويبدأ بتوقل العضد الأول لجبل لبنان، ويجتاز غابة سنديان أخضر وعرعر، في الكم ٢٠ المشيتية، ضيعة بسيطة يترك فيها على اليسار الجنوب الغربي مجاز صالح للسيارات يفضي إلى اليمونة - غيضة جوز.

في الكم ٢٥ عيناتا، قرية سكانها ٦٠٠ موارنة، مبنية حول نبع وفيها كنيسة. ومن عيناتا يمكن الوصول إلى اليمونة خلال ساعتين من مجاز يتجه نحو الجنوب الغربي متتبعاً الوادي الذي يؤلف بعد بحيرة اليمونة.

يترك السيارة في عيناتا ويبدأ بالتسلق ماشياً أو راكباً بغلاً من مجاز ذي متعرجات وصعائد كأداء جداً في سفح لبنان والأرض هنا صخرية. نبتت فيها شجيرات وأنجم ملتوية وكلما تقدم في الصعود يزداد اتساع المنظر وبهجته فيرى كل سهل البقاع حتى جنوبه وبحيرة اليمونة وسلسلة لبنان الشرقي وجبل حرمون.

بعد نحو ساعتين يصل إلى عقبة الأرز (العلو ٢٦٥٠م) فيكشف فيها فجأة في سطح الصب الغربي منظراً لا يقل عن الأول روعة وبهجة، فيرى أرز لبنان ووادي قاديشا السحيق وفي الأفق البعيد البحر المتوسط الممعن في بعده وزرقته، وبعد بلوغ منتهى الصعود يبدأ الهبوط في مجاز أسهل من الأول فيصل إلى الأرز في الساعة ٣,٣٠ من مغادرة عيناتا.

وقد شرعوا منذ بضع سنوات في فتح طريق للسيارات من بعلبك إلى الأرز يمر بشليفا وهي في منتهى الجنوب من يمونة ثم يتسلق منعرجات في سفح جبل المنيطرة ويمر بشرقي الباقورة سالكاً خط العمود الفقري للعرفة إلى أن يبلغ حدث الجبة وهي على الطريق الهابط من الأرز إلى طرابلس وعلى بعد ٢٣ كم من الأرز.

من بعلبك إلى اليمونة ٢٧ كم من لحب صالح، وسيمتد فيه طريق السيارات من بعلبك إلى البشتية ٢٠ كم، (وقد مر وصفها) ومن ثم يترك على اليمين طريق عيناتا ثم يهبط اللحب نحو الجنوب الغربي إلى حفرة اليمونة.

في الكم ٢٧ اليمونة - يمكن أن يبيت لدى المختار قرب الكنيسة المارونية الصغيرة - قرية صغيرة، سكانها ٢٠٠ نسمة نصفهم شيعة ونصفهم موارنة، مبنية في سفح جبل لبنان وتشرف على أرض منخفضة كالحفرة، علوها ١٣٧٥م فيها بحيرة ذرعها كيلو متر في عرض نصف ذلك، ليس لها منفذ سوى فتحة كبيرة، ثم هي تجف بالمرة في أواخر الصيف.

وهناك ينابيع تنبجس من الصخور المجاورة وتصب في هذه البحيرة، وأخصها نبع الأربعين، وقد سمي بذلك لأن هذا النبع يزداد تدفقه في عيد الأربعين شاهد (٢٢ آذار) من غربي القرية.

وفي جنوبي القرية على ضفة البحيرة يوجد أطلال هيكل يوناني - روماني للزهرة لا يزال أكثر سوره سالماً ومثله الطبقة السفلى من المعبد، وتذكر المثيولوجيا

الفينيقية كثيراً من الإشارات عن بحيرة اليمونة منها أن عشتروت حينما هربت من تيفون انمسخت فيها سمكة، وفي اعتقاد يتناقله أهالي لبنان أباً عن جد أن مياه نهر إبراهيم (أدونيس) تنشأ من هذه البحيرة، وعلى بعد ٣ كم من جنوبي بحيرة اليمونة يوجد في قعر وادٍ مسدود بحيرة صغيرة أخرى، طولها نحو كيلو مترين مؤلفة من ماء رائق جداً واسمها بحيرة الزينية.

وإذا تم طريق السيارات بين بعلبك والأرز يمكن الوصول إلى اليمونة ماراً بشليفا ومن اليمونة يمكن الوصول إلى أفقه التي فيها نبع نهر ابراهيم، أو العاقورة ومنها أيضاً يمكن الوصول خلال ساعتين إلى ضيعة اسمها عيناتا وهي في حضيض ثنية الأرز، وفيها ينبوع بارد شهير وإليها مجاز يتجه نحو الشمال الشرقي محاذياً الانخفاض الذي كان السبب في حصول البحيرة.